ميراث الألم
د. محمد سمير الخولي
Telegram:@mbooks90
مجموعة قصصية
المصري للنشر والتوزيع

ميراث الألم
د. محمد سمير الخولي
دار المصري للنشر والتوزيع
الترقيم الدولي: 978-977-770-235-5
رقم الإيداع: 2024/14476

www.elmasrypublishing.com
elmasrypublishing@gmail.com
35 شارع أحمد زكي- المعادي- القاهرة
ت: 01146335098
المدير العام: يوسف ناصف

جميع حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة لدار المصري للنشر والتوزيع
ولا يجوز التصرف في أي جزء مما ورد في هذا المصنف ورقيا أو رقميا
أو بأي صورة أخرى إلا بموافقة خطية من الناشر.

بائعُ الفطير

كان الجميعُ يعدّ الدقائق والساعاتِ؛ لينعم باجتماع الأهلِ وأنسِ الأصدقاءِ في إجازة قصيرةٍ، ويقصّرها أكثر بُعدُ المسافة لمَن يعيشُ بعيدًا عن معسكرِ جيشه إلا عزمي لم يكن أبدًا مثل هؤلاءِ، فما إنْ يخرج مِن معسكرِه حتّى يمشي غير بعيدٍ ليصلَ إلى محلّ حدوتة للفطائرَ ملك المعلم عبد المجيد، والذي كان يعطفُ عليه لرقّة حاله وفقره الشديد، فقد كان لعزمي سبعةُ مِن الأخوة الذكور وأختان لم ينقصهم سوى فردين ليكتمل فريقُ لكرة القدم، كان أبوه يقفُ على بسطة فاكهةٍ، وأمّه بجواره تبيعُ الفجلَ والبصلَ الأخضر في سوق البلدة ليعودا في نهايةِ النهار بطعامٍ بالكاد يكفي تلك الأفواه المنتظرة بالبيتِ ولا يكادُ يملأ بطونَهم، لذا لم يرد عزمي أنْ يزيد العبء بزيارةِ أهله في الإجازة ويستبدل ذلك بالعملِ في محلّ الفطير والنومِ في مخزن الخامات حتّى تنقضي الإجازة ويعود أدراجه إلى معسكره، لم يكن يعلمُ ما تخبأه له الأيام وأن صنعة الفطير ستكون بابَ الخيرِ والرزق الوفير.

تمت سنواتُ جيشه مسرعةً لينتهي ويطلبُ مِن المعلمِ عبد المجيد أنْ يعملَ معَه ويعيشَ في المخزنِ، فهو لا يريدُ العودةَ إلى بلدته، فما كان من هذا الرجلِ الشهمِ إلا أنْ نصحه وساعدَه قائلًا لا يمكن أنْ تهجرَ أهلَكَ وتغادر مسقطَ رأسِكَ وتعيش بعيدًا عنهم لأجلِ توفير لقمةِ العيشِ، فيمكنك البدءُ عندهم وفي جوارِهم، وكما تعلم يوجدُ بالمخزنِ العديدُ من المعدات القديمة سأختارُ لك منها أحسنَها، وتنطلقُ إلى بلدك لتبدأ هناك حتّى وإن لم تملك إيجارَ محلٍّ، يمكنك الوقوفُ على الرصيفِ أمامَ أيّ محلٍّ بالاتفاق مع صاحبه على مبلغٍ يومي ثابتٍ تدفعه مقابل الانتفاع، نشط عزمي بكلام معلمه وقاما ينظران في المخزنِ، واستخرجا منه فرنًا لخبز الفطائر وعجانةً وأدواتِ تقطيعٍ وتقديم وحتى الثلاجة لتخزين المكونات الطازجة والحفاظ على الحشوات المبردة، ولم ينس الأكياس وعلب التعبئة، وقال له لقد أصبح مشروعك جاهزًا، وهذا جوال طحين أرسله مع المستلزماتِ حتّى لا تحتاجَ لشراء سوى المكوناتِ اليومية من حشوٍ وتوابلَ وأجرةِ السيارةِ التي تنقلهم إلى بلدك، اعتبرها هدية افتتاح المشروع، دمعت عيونُ عزمي، وانكبّ على رأسه يقبلُها ويقولُ لن أنسى

Telegram:@mbooks90

جميلَك ما حييتُ، وعاد لبلده محملًا بالسرور والمعدات متوجهًا إلى بيت السيدة فوزية ليستأذنها أن يضع المعداتِ أمام محلّها المغلق منذ سنين بالشارع الرئيسي وأنْ يمدّ منه وصلةً للكهرباء على أنْ يدفعَ لها ما تريدُ، ولكن يومًا بيوم لأنه لا يملك رأس مالٍ، فوافقت المرأةُ الكريمةُ ومنحته شهرًا مجانًا حتّى ينمو المشروعُ، ويدرُّ عائدًا ولم يذهب عزمى لبيته يستريحُ من السفر وإنّما إلى المحلّ يأخذُ منه كهرباءَ للثلاجة وإضاءة كشاف وضع تحته لافتة فطائر حدوتة تيمنًا بمحل معلمه، ذهب للسوبر ماركت المقابل له، وأخبره أنّه سيفتح أمامه ويصنع الفطائر بالجبن والفواكه والمكسراتِ، وأنّه سوف يأخذُ منه خاماتٍ في أول اليوم ويدفعُ حسابَها في آخره؛ لأنّه لا يملك المالَ فوافق الرجل وبشّره بالرزق الوفير نظرًا لازدحام الشارع بالناس، وأنّ المهم جودةُ الفطائر، كان وليد يسكنُ خلفَ هذا المحلّ وما أن رآه في أول يوم ذهب ليتعرف عليه، ورقّ لحال عزمي الذي لم يستحِ من إظهار فقرِه عندما سألَه وليدٌ هل عندك فطيرٌ باللحم المفروم؟ فرد سأسأل في السوبر ماركت المقابل وإذا وجدتُ ستنتظر فقط عشرين دقيقة لتأكل أجملَ فطيرة لحم في حياتك، انتظرني لحظةً فأنا لا أملكُ أيّ رأس مال أشتري به خاماتٍ، واتفقتُ مع صاحب السوبر ماركت أنْ يمدّني بما أحتاجُ وأحاسبُه آخرَ اليوم، فما كان من وليد إلا أن قال عندي اقتراحٌ جميلٌ سأجلب لك اللحم المفروم من الجزار وسنرى مهارتك، قابل وليدٌ صديقَه بلال وهو في طريقِه للجزار وحكى له عن عزمي، وقال واجبٌ علينا أن نساعدَه حتّى يوفى بطلبات عملائه، قال بلال عندي فكرة نقدّم له مبلغًا من المال لعدد خمسين فطيرة وندفعه مقدمًا، ونقول له هذا أفضل لنا حتّى إذا سافرنا أو احتاج أولادنا في غيابنا ما عليهم إلا أن يأتوا ويطلبوا وينطلقوا، ردّ وليد نِعم الرأيُ، وعادوا إلى عزمي باللحم وبمبلغٍ فرحَ به جدًا، ودعا لهم بالخير، وصدق حدس صاحب السوبر ماركت، فقد بدأت الأقدامُ تزدحمُ على عزمي حتّى أنّه اضطر إلى الاستعانةِ بعاملٍ يجهّز له العجينَ ويقطّع الحشوَ، ولم يجد وليد داعيًا مِن فرض أكل الفطير على أهلِ بيته شبه يوميًا أو من يزورهم؛ لأجل المساهمة في نماء هذا المكان وازدهاره، فقد أصبحَ عنده مِن العملاء ما يغريه بفتح فرعٍ جديدٍ، وهو ما حدث بعد أشهرٍ قليلةٍ، ضحكت الدنيا في وجه عزمي وأسرته وفتحت لهم ذراعيها بالفرج، لم يستعن عزمي بعمالة من الخارج وإنّما أقنع أربعةً من إخوانه أنْ يكونوا عمادَ المحل وشركائه

في الربح، توافقت آراؤهم وأبرموا عقودًا تحفظ لهم الحقوقَ، وعلى عكس ما كان يوم افتتاح الفرع الأول تم تصميم وطباعة لافتات خارجية وداخلية للمطعم، وكذا قائمة الطعام وارتداء العاملين زيًا يحمل نفسَ اللون مع شعار فطائر حدوتة، وعمل تجهيزات صوتية وإضاءة ممتدة عن يمينِ ويسارِ المطعمِ، وتنظيم عروض ترفيهية، وعمل مسابقاتٍ وعروض على الفطائر والبيتزا، لم يستطع عزمي وإخوانه الجلوس للاستراحة ولو لحظةً حتّى الصباح ولا أدرى هل كان تلك المكان بحاجة ماسة إلى محل فطائر كهذا أم أنَّ عزمي ما إن يشرع في عمل حتّى يأتيه الرزقُ من كلّ مكانٍ، وكان دائم التوسل لأبيه أن يترك بسطة الفاكهة ويساعده في محلّه بأن يحصّل النقدَ من العملاء فقط، وأبوه يأبي ويقول هذا عملي منذُ شببت عن الطوق ولا أتركه ما حييت، ولكن الأمر اختلفَ عند فتح الفرع الجديد عندما ذهب الأخوة الشركاء جميعًا لأبيهم يقنعونه أنّهم عازمون على فتحِ فروعٍ كثيرة على مستوى المحافظة، ولن يحافظ على المالِ إلا أصحابُه وأولى بك أن تجلسَ عند ماكينة تسجيل مدفوعات العملاء وإصدار الإيصالاتِ؛ لتحافظ على أموالك مِن أن تقف على بسطة فاكهة ليست ملكك، وإنّما مقابل يوميه لا تغني شيئا، ولا تقلق سوف تتدربُ جيدًا على الماكينة ولن تحتاج لتعلم القراءةِ أو الكتابةِ لأجل ذلك.

تحوّل عزمي بعد فتح الفرع الثاني إلى رائد أعمال يقومُ بدراسة السوقِ مِن خلالِ تجربته العملية والميدانية وفهم احتياجات العملاء في كلّ منطقة ليقدمَ منتجاتٍ وخدماتٍ تلبي تلك الاحتياجات فلم تعد محلاتُه تقدم الفطائرَ والبيتزا فقط، وإنّما مطاعمُ متكاملةٌ تقدم أطباقًا عالميةً ومأكولاتٍ صحيةً وفقًا للأماكن والأذواقِ، ولم يكتفِ بذلك، بل قرر أن يدخلَ عالمَ الحلوياتِ الشرقيةِ والغربيةِ بتأسيسِ علامةٍ جديدةٍ تحت اسم «**مذاق الشرق والغرب**» وكلّ ما مرّ من نجاحاتٍ كان بمثابة نجمةٍ واحدةٍ في سماءِ النعمةِ والوفرة والثروة، فقد كان عالمُ الحلوياتِ طريقَ الغنى لهذا الشابِ المكافحِ الذي لم ينل حظًا مِن التعليمِ، فقد كان بالكاد يكتبُ اسمَه، ولم يتدرب على ريادةِ الأعمال ولا استراتيجيات ريادة السوق ولا دراسات الجدوى، وكأنّ المقولةَ القديمةَ «المالُ يجلبُ المالَ» صدقت مع هذا الشابِ على الرغم مِن تكذيبِ بعضهم لها ممن يدّعون أهميةَ عمل استراتيجياتٍ، وتحليل المخاطر، والتخطيط

الدقيق الذي يعتبر كافة العوامل الداخلية والخارجية.

لم ينس عزمي يومًا دعوة وليد وبلال في افتتاح أيّ فرع جديد حتّى ولو في محافظةٍ أخرى، وكأنّه يريدُهم أن يكونوا جزءًا مِن فرحته كما كانوا يومًا ما سندًا ودعمًا له في بداياته.

مرّت الأيامُ وحلت ضائقةٌ ماليةٌ بوليد التاجر الميسور ذي الملاءة المالية، الذي كان يُيَسّر على المعسرِ، ويوسّع على كلّ من حوله بالنفقة، وكأنّما تدور حياةُ النّاس كما تدور الأرضُ حولَ الشمس، وكلّمًا اقتربت أشرقت حياةُ عزمي وسطع نورُها وكلّمًا ابتعدت أظلمت حياةُ وليد واكتست بالتحديات والصعاب، فلم يتحمل انحسارَ المالِ في حياته لأنّه لم يعتده أبدًا منذُ وُلد، ولم يكن يعلم كيف يواجه أو يتأقلم، وبعد عزلة اختياريه فرضها وليدٌ على نفسه لإعادةِ تقييم المواقف والتفكير بعيدًا عن المشتتات ورؤية الصورة من بعيدٍ لإعادةِ توجيه بوصلة الحياةِ، كان مِن ضمن خياراتِ الخروج مِن الأزمةِ هو الاقتراضُ من عزمي وجدولة السداد على فترة طويلة تكون كافيةً للتعافي وإعادة التوازن إلى الحياةِ، لم يشك وليد لحظة في عدم استجابة عزمي والذي جاءته الفرصة لردّ الجميل وسداد دين معنوي قديم كما توقّع وليد وإنّما كان العائقُ النفسي عند وليد أنّه لم يقترض من أحدٍ طيلة حياته التي كانت مليئةً بمواقف الشهامةِ والمروءة مع الجميعِ، وكان ثقيلًا جدًا على نفسِه أن يقترض عامةً ومن عزمي خاصة، والذي لم يكن بينهم أيُّ تعامل مادي غير يوم افتتاح محله الأول وكان فيه صاحب اليد العليا، اتصل وليد يطلب مقابلة عزمي والذي وافاه في ساعةٍ متأخرة من الليل، فلم يعد ذلك الفتى الذي يقف على البسطة يلف العجينة في الهواء ويفردها على الرخامة ليضعَ فيها الحشوَ، إنما صار السيد عزمي رجل الأعمال.

كان وليد قد حرر شيكات بنكيةٍ بمبالغَ شهريةٍ بقيمة المبلغ الذي يطلبُه من عزمي ليفي بالتزاماته ليودعها عنده على أنْ يسددَ على ثلاثِ سنواتٍ، وذلك ضمانًا للحقوق وتعزيزًا للثقة وعدم القلق بشأن التزام السدادِ، وكانت الصدمةُ العنيفةُ التي لم يستوعبها وليد هو رفض عزمي معللًا أنّه يخطط لاستثمار أمواله في مشاريع

تتطلب توجيه أغلبِ السيولةِ النقديةِ وطفق يذكر أرقامًا بالملايين كدفعاتٍ شهريةٍ مطلوبةٍ منه، ووليد في ذهولٍ؛ لأن ما يطلبه فقط هو مبلغ ثلاثمائة ألف تسدد بواقع مائة ألف كلّ عام، شرد ذهنُ وليد ورجع سنواتٍ ليتذكرَ ما كان يحملُ لهذا الشاب من رغبةٍ صادقةٍ في الازدهار والطلب مِن أصحابِه والجيران أن يساعدوه بالشراء منه؛ لينمو مكانُه ويكبر، وأنّه لم يكن يقدّم لمَن يزوره بالبيت إلا الفطائر الحلوة مِن عنده حتّى ظن النّاش أنّ وليدًا صاحبُ محلّ الفطائر وليس عزمي، وكيف كان يدفع له المبالغ مقدمًا لتساعده على شراء الخامات، والآن هو مَن يطلبُ منه المساعدة وهو يأبى، عاد وليد يجرُّ أذيالَ الخيبة وهو يشعرُ بالخزي والانكسار والهوانِ، ويتمنى أن لو يقطع هذا الموقف من شريط حياته ويختفي من ذاكرتِه، فهو التاجرُ الكريمُ ابن الكرماءِ، الذي لم يلجأ في عمره إلى الاقتراضِ مِن أحدٍ، وهو صاحبُ الأيادي على الجميعِ والفضل على الكلّ، ولو كان طلب من أي تاجر لما تأخر عنه، أم أنّه اختار الشخصَ الخطأ، وبات ليلته يتأملُ في هذا الموقف ويحلله لعلّه يهتدي لسببٍ يقتنع به، فيتساءل ألمْ يكن عزمي يريدُ ردَّ الجميل من دعمي له في بداية حياته أمْ أنّه لم يشعر أن ذلك معروف وإحسان وأن الفرصة واتته لرده؟ لماذا إذا كان يحرصُ على دعوتي وبلال في افتتاح كلّ فرع وحتى السفر معه إن كان الفرعُ خارجَ المدينة إلا أنْ يكون بسببِ مواقف البدايات، أم أنّه اكتفى بذلك وجعله المقابل لما فعلناه؟ أم أنّ الأمرَ لا يتعلق بالجميل ورده وإنّما نشأته في بيئة فقيرة وكدّه من سنٍّ مبكرةٍ علّمته قيمةَ المالِ، وحبّه والخوف من فقدانه والمحافظة عليه في استثمارات آمنة، ولكني لن آخذ المال وأجحده وإنّما أودعته شيكاتٍ مضمونةِ التحصيل؟ أم أنّ له تجاربَ سابقةً سلبيةً في إقراض الأموال للأصدقاء أو العائلة وتعرض للخيانةِ، ولم يرض الإيذاء لهم برفع دعوى قضائية؟ بل ربما يشعر أنّه يجب عليه الاحتفاظ بالمال لتأمين مستقبل أولاده فلا يريدُ لهم الضيقَ والمعاناةَ التي عاشها في بداية المشوار، أم أنّه ليس ثمة مبرر لفعله سوى أنّه ماله اكتسبه بعرقه وليس لأحد أن يقرر فيه غيره، فيذكر قول الشاعر:

إنَّ الكرامَ إذا ما أيسرا ذكروا

مَن كان يألفُهم في المنزلِ الخَشنِ

فيقول وما فائدة المالِ إنْ لم تسعَ به في خدمة النَّاسِ، ومساعدة غيرك، وهل يخلّد ذكر الإنسان بعد موته إلا شهامتُه وكرمُه، لم يسترح وليد لكل هذه التبريرات وبدأ يتملكه شعورٌ بالندم والأسى على كرمه وعطاءه والذي أوصله إلى هذه الحال، ويلوم نفسَه قائلًا لم ينفعني الكرم، بل هو بريدُ ضيقِ الحال، وصدق من قال: (الجود يفقر والإقدام قتال) وهذا الذي لم يكن له ذكرٌ بين الأغنياء ولم تكن له عائلةٌ ترفعه ولا نسبٌ يقدّمه هو الآن أغنى مَن في البلدة، وما ذلك إلا لتقتيره وكنزه المال وضربه سياج شائكة حوله فلا يصل إليه أصحاب الضوائق.

ظلت هذه المشاعرُ حبيسةَ نفس وليد، ولم تنجح أن تغير من كرمه وشهامته وتقديم يدِ العونِ لمَن يطلبُها بلا مقابلٍ، وكأنَّ الخير الذي يحمله وليدُ مزروعٌ فيه دونَ قصدٍ منه أو إرادة، أما شعوره تجاه عزمي فأصبحَ يعلوه الحنقُ ويكسوه الغضبُ الذي يتحين الفرصة ليعصف حتّى وجدها حين ذهب للمشاركة في المؤتمر السنوي لتوزيع جوائز العمرة والتي كان يشارك فيها كلّ عام بالتبرع المالي وإلقاء كلمةٍ بعدَ إجراء عملية السحبِ وإعلان الفائزين، وكانت المحافظةُ بالتنسيقِ مع الجمعيات الخيرية تنظمُ هذا المؤتمرَ بترشيحِ بعض الحالاتِ الفقيرة لرحلةِ عمرة، بالإضافة إلى الفائزين في المسابقةِ الدينية عن طريق السحبِ، وكانت هذه السنةُ الأولى التي يتم دعوة عزمي والذي ساهم بمبلغٍ سخي كتبرعٍ، وتمّ ذكرُه وتقديمه على أنّه رجلُ الأعمالِ وسط ابتسامات عريضة منه ومِن عائلته المرافقين له، ووليد يتذكرُ ما فعله منذُ أكثر مِن ثلاث سنوات وكأنّه بالأمس ومشاعر الحنق والغضب لم تتلاشَ أو تقلّ مع تلك السنين، وإنّما كانت أشبه بالبركان النائم الذي يتحين لحظة الثورة والتي واتته بعد دعوته إلى المنصة ليلقي كلمةً، وقد كان متحدثًا بارعًا، وبعد أن استهل بآياتٍ من الذكر الحكيم وتقدم بالشكر للسيد المحافظ والسادة رؤساء الجمعيات الخيرية، ثمّ مضى في كلمته عن الجهود الخيرة والعطاء السخي ودوره في تعزيز قيم التضحية والإيثار وأنَّ التكافلَ هو الركيزةُ الأساسيةُ في بناء مجتمعٍ مترابطٍ، متماسكٍ، رحيمٍ، ثمّ فجّر البركان في نهاية كلمتِه عندما قال وفي الختامِ لا يسعني إلا أن أشكر المساهمين في الجوائز وطفق يذكر الأسماء والألقاب حتّى ختم باسم عزمي بعد أن قال ولا أستطيعُ أن أقول رجلُ الأعمالِ، فلا تغريني هذه

الألقابُ فما زلت أذكرُ بداياته كبائع فطير على رصيف الشارع فشكرًا لعزمي بائع الفطير، ونزل وليد من المنصة متجهًا إلى باب الخروج دون الانتظار لكلمة الختام وأخذ صورةً تذكاريةً كالمعتاد واستقل سيارته وهو يشعرُ بنشوة الفوزِ وزهو الانتصار ويضحك وهو يقولُ لقد سحقتُ بائعَ الفطيرِ، أيظنّ أنّ المال يشترى الوجاهة، وطالما أنّه ينفق هكذا في أوجه البر، لماذا إذًا تنكّر لصاحبه أم أنّه أنفق ليقالَ جوادًا أم أني لم أكن بصاحبه، ثمّ تدارك وليد بشاعةَ ما فعل من إحراجِ عزمي وانتقاصِ قدره أمامَ عائلته والمدعوين والإعلام، وتعجب كيف يصدر هذا عنه؟!

ولا يعلمُ ذلك من نفسه قبل ذلك اليوم، فأدرك أنّ ما يحملُه من غضبٍ ليس شعورًا بالغضبِ وحده على خذلانه وترك مساعدته، وإنّما امتزجَ بالغيرة والحسدِ والحقدِ على النعمِ والثروات التي وصل إليها بائع الفطير.

رحمة الله على الوفاء

لم يعد مِن الرحيل بُدّ، فلم تعدِ الخرابةُ كسابقِ عهدها، كنّا نتشاركُ الطعامَ الوافرَ مع الضيوفِ ولا نضجر إنْ طال مقامُهم، أو قرروا الاستقرارَ والعيشَ معنا، ماذا حدثَ للكلابِ، كيف لضيوفٍ طارئين أنْ يُضيّقوا علينا حتّى نرتحل ونحنُ أصحابُ البيتِ، والكلابُ على مرِّ الزمانِ مضربُ المثلِ، ورمزُ الوفاءِ أم أنّ التغيير طالهم كما طال كلّ شيء في هذا الزمان، هيا يا زوجتي اجمعي الصغارَ لنرتحل بحثًا عن خرابة جديدة بعيدًا عن الصراع، مشوا يجرون أذيالَ الخيبةِ، ويتذكرون أيامهم الهانئة وأكوامَ الطعام التي كانت تلقى أوقات الولائم، ولحظات ولادة الصغار، وتطوف الذكرياتُ وهم يجولون ويمرحون ويلعبون، فقد كانت تلك الخرابة بمثابة الواحة الظليلة لهم ولأبنائهم، كان الأبُ شديدَ التأثر بالفراقِ، وزوجتُه تحاولُ أنْ تغيرَ ملامحَ الصورةِ القاتمة في خياله، وتضيء له المستقبلَ بشعاعِ الأملِ في إيجاد مأوى جديدًا يحمل مغامراتٍ وفرصًا للنمو والاكتشاف وتجاربَ جديدةً ستكون ذكرياتٍ جميلةً يذكرونها في قابلِ الأيام.

توقف الأبُ وعينيه تجولُ المكانَ وما حوله، وسأل زوجته ما رأيك في هذا المكان؟ يبدو أنّ تلك الأرض مهملةٌ من سنواتٍ؛ فإنّ هذه الأشجار الشامخةَ في جنباتها تنبئ عن أن أحدًا لم يأتِ منذُ زمن مما أغرى النّاس بإلقاء مخلفاتهم فيها، إذًا فالطعام متوافرٌ والمكان واسعٌ، ولكن لماذا يا تري لا يسكنها أحدٌ من الكلابِ أم أنّ الجيران لا يسمحون لهم بذلك؟ فلنبيت هنا هذه الليلة، ولا يصدرُ منكم يا صغاري صوتٌ فيطردنا صاحبُ البيت المقابل.

نام الجميعُ نومًا هادئًا برغم إرهاق البحثِ وتغيير المكان، وما إنْ فُتحَ بابُ البيتِ المقابل في الصباح ليخرج منه طفلٌ يحملُ نقودًا حتّى انقض عليه كلبٌ صغيرٌ ينبحُ، فهرع الطفل مذعورًا إلى داخل البيت، والكلبُ ينهرُ ابنَه ماذا تفعلُ، وكيف تنبحُ على مَن نعيش بجوارهم؟ فالأولى بنا أن نحميَهم، ألم أنبه عليكم بالأمسِ ألا تُحدثوا صوتًا حتّى لا ينزعج الجيرانُ؟ وماذا عساه أن يفعلَ والدُ الطفلِ، بالطبع يطردُنا أو يضعُ لنا سمًا في الطعام، لم يكملِ الكلبُ حديثَه لولدِه حتّى خرج والدُ الطفل غضبًا؛ لينظر

ما الذي راع طفلَه لهذه الدرجةِ، فطأطأ الكلبُ رأسَه وتقدّم خطواتٍ نحو والدِ الطفل معتذرًا في انكسارٍ، وما كان مِن والدِ الطفل إلا أنْ نادى على ولدِه؛ ليخرج ويشترى ولا يخافُ وكأنّه يعرفُ لغةَ الكلابِ وقَبِلَ الاعتذارَ، وأخذ الكلبُ يلقّن صغيرَه دروسَ الوفاء، وأنّ الكلابَ على مرّ الزمان تحمي البيوتَ، وتؤدى حقَّ أصحابها، وأنّها صارت رمزًا ومثلًا للإخلاص، لم يكن لتلك الكلماتِ أيُّ صدى ولا أهميةٌ عند ذلك الصغيرِ الذي قرر أنْ يتحدّى العالمَ، ويخوض مغامراته الخاصة.

لم يشعر الكلبُ الصغيرُ يومًا بمسئوليةٍ تجاه الأخرين، ولا أهميةٍ لنصائح والده، ولا اكتراث بطاعته، فقد كان مدفوعًا بغضبٍ واستياءٍ مِن طردِ الكلابِ لهم من بيتهم الأول دون شفقةٍ أو رحمةٍ، وأنّ قيمَ الوفاء والحماية هي قيودٌ يقبلُ بها الضعفاءُ، وأغلالٌ في أعناق ضعافِ الحيلة، وقرر الانقلابَ على قيمِ الإخلاص والولاءِ والتمرد على الطاعة، فلو كانت تلك القيمُ تنفعُ لأغنت عنهم ووقتهم شرّ الظلم والغدرِ؛ خرج والدُ الطفل يحملِ عظامًا وبقايا طعام يقدّمها للكلاب وكأنّهم أضيافٌ يؤدّى لهم حقَّ الضيفِ، وطفله الصغير بجانبه ليعودَه أبوه ألا يخاف منهم، وأنّهم لا يؤذون جيرانهم، فهم حمايةٌ وحراسةٌ وأمان.

والكلبُ ينظرُ في تلك اللحظةِ إلى صغيره بومبا نظرةً مليئةً باللومِ والعتابِ، والرجلُ يضعُ الطعامَ أمامهم، وكأنّه يقول له: انظر، كيف قابلَ الرجلُ الغدرَ بالعطاءِ والإكرام، ولم تطل نظرةُ الكلبِ لصغيره حتّى ينقضَّ مرةً أخرى باتجاه الطفل الذي يترك جوارَ أبيه ويجرى للبيت في فزعٍ وهو يغلقُ بوابةَ البيت بشدةٍ، حركت الصدمةُ الكلبَ فقفز فوق بومبا ليمنعه بقسوةٍ مِن مواصلةِ النباحِ والتسبب بمزيدٍ مِن الرعبِ للطفل، وكأنَّ هذه القفزة أرضتْ صاحبَ البيتِ الذي اكتفى بها ولم يتناول حجارةً يضربُ بها هذا الصغيرَ المتمردَ.

دخل صاحبُ البيتِ وبقى الكلبُ بحالةٍ مِن الإحباطِ واليأسِ مِن تصرفاتِ ابنه الذي خرجَ عن طوعِه وأبَى إلا أنْ يحرقَ تاريخَ الوفاءِ ويهدمَ صرحَ الإخلاصِ ويطفئَ شموعَ الثقة برياحِ الخيانةِ.

خيمت لحظاتُ الصمتِ المؤلمِ على المكانِ حتّى جاءت أم بومبا تهمسُ في أذن

زوجها ألا داع إلى هذا اليأسِ، فبومبا ما زال صغيرًا، وسوف يتعلمُ بمرورِ الوقتِ والتجاربِ، ويغلبُ عليه أصلُه، وسوف أجلبُه للاعتذار، تحدّث الأبُ إلى ابنه بصوتٍ هادئٍ مليء بالحزن محاولًا إيصالَ رسالته إلى قلبِ ابنه بكلماتٍ صادقةٍ مؤثرةٍ، يعيدُ فيها توجيه بوصلة حياته للإخلاصِ والوفاءِ، وأنَّ هذا هو الطريقُ الأوحدُ، وأننا لا ينبغي أنْ نحملَ الانتقامَ، ولا نعاملَ الرجلَ الذي أحسنَ إلينا بغضبِ الظلمِ الذي وقع علينا في بيتنا الأولِ، وأنّ خبراتِ الحياةِ ليست كلّها سارة، وإنّما منها المؤلمُ، تعجّب الأبُ من ردّ بومبا والذي اتخذ مِن الخيانةِ طريقًا؛ حيث قال: لقد اخترتُ الانتقامَ دونَ رحمةٍ، والظلمَ بلا شفقةٍ حتّى أتربع على عرشِ القوةِ في عالمٍ لا يحترمُ إلا الأقوياءَ حتّى وإنْ كانوا ظالمين، ويحتقرُ الضعفاءَ حتّى لو كانوا مظلومين، فلا تتعب نفسَك بنصائحَ لن تجدَ لها أذنًا صاغيةً ولا قلبًا مجيبًا، وإنْ رضيتَ لنفسِك الإنحناءَ والخنوعَ تحت شعارِ الوفاء فأنا لا أرضى، ولسوف أرغم الجميعَ على احترامنا بترهيبهم لا بالإخلاصِ لهم، وسترى أيّ الطريقين أجدى وأنفعُ.

أقعد الخزيُ الكلبَ عن الكلامِ أو الحركةِ، وسرعان ما تطور الأمرُ إلى فقدان الشهية للطعام، وكأنّه يحملُ طعمَ الحياةِ المر، هزل جسدُ الكلبِ حتّى لم تعد تحملُه قدماه إلى أنْ فارق الدنيا بعدَها وهو يقول: رحمةُ الله على الوفاءِ.

طرقَ الحُبُّ بابَه

صرخت سعادُ في عاطف فور ردّه عليها في الهاتف قائلة: أنقذ صديقَك المغفّلَ مِن هذا المصيرِ الأسودِ احمِ هذا الولدَ العاقَّ الذي رفضَ الطاعةَ وتمرّد على أمري وتحدّى إرادتي ولم يعر اهتمامًا لثورتي وغضبي، ويظنّ أنّ موتَ أبيه سيضعفني، وأنّه قادرٌ على إنفاذ ما يريدُ، بالطبع لن أتركَه يفعلُ ذلك حتّى لو استعديت عليه كلّ العائلةِ.

بدى على عاطف الاستغرابُ من انفعال أمِّ آدمَ رغم معرفته بأمرِ صاحبِه، وأظهر التعاطفَ معها في محاولةِ تهدئتها، وأنّ لكلّ مشكلةٍ حلًا وإنْ تعقدت؛ اشرحي لي الآن ما الأمر؟ حتّى نفكّر بعقلانية وهدوءٍ، قالت: لقد أُصيبَ صاحبُك بالجنون، أمضى الساعاتِ كلّ يوم أحادثُه كصديقةٍ وأعرض عليه بناتٍ من العائلةِ والجيرانِ في وُدٍّ وحنانٍ ورغبةٍ عارمةٍ في رؤيته على منصة الزفافِ وبجواره شريكةُ حياتِه، وتسقطُ دموعي مِن اللهفةِ وهو يرفضُ كلّ الترشيحاتِ، ويقدّم حججًا ضعيفةً وغير مقنعةٍ رغم توافر كلّ ما يحلمُ به أيُّ شاب في فتاةٍ من الجمال والحسبِ والأصلِ الطيبِ، وتجهيز منزل الزوجية بما يحتاجُه، وهو آخرُ ما فعله أبوه قبلَ رحيله، وكنتُ لا أفهمُ عزوفَه حتّى أثقلتُ عليه اليوم في الحديثِ، وأخبرتُه أنّي سأخطبُ له ابنةَ عمّه الأكبر، وأرغمه على الارتباط بها طالما أنّه لا يقبلُ أيًّا مِمّن أعرضُهم عليه وعندها لن يستطيعَ الرفضَ إكرامًا لعمّه وخوفًا مِن إحراجي، إلى أنْ فاجئني بأنّه يحبُّ سارةَ المطلقةَ صاحبةَ الثلاث أبناء، والتي تكبرُه بخمس سنواتٍ وأنّه لن يتزوجَ غيرَها، أدركْ صاحبَك يا عاطفُ فقد خرجَ غاضبًا بعد سبّي وإهانتي له، حتّى أنّي ألقيتُ عليه مزهرية الوردِ، والحمدُ لله أنها تكسرت بجانبِه ولم تصبه، أخبره أنّ زواجَك مِن سارةٍ يعني موت أمّك، وسخط عائلتك، فكيف يحبُّ امرأةً كهذه، لا أراها إلا أظهرتْ له بعضَ جسدِها لتغريه أو سحرته، فأمثالها لا يستحي أنْ يلجأ للدجالين والمشعوذين.

وعدَها عاطف أنّه سيتدخلُ، وأنّ له على آدم تأثيرًا، وطمأنَها وسكّنَ خاطرَها، وأغلقَ الهاتفَ وهو على يقينٍ أنّه لن يجدي نفعًا في هذا الأمرِ، فلطالما حدّثه آدمُ عن حبّه لسارةِ ولأولادها، حتّى أنّهم ينادونه بابا آدمَ، وأنّ تلك العلاقة تعدت الثلاث سنوات ولم يمنع آدمُ مِن مصارحةِ أمّه إلا معرفته بردّها وموقفِها العدائي الذى

ستشحن فيه كلّ القوى والطاقاتِ حتّى تصرعَ هذا الحبّ وتكتبَ قصةَ نهايتِه، فكان يؤجّلُ الصدامَ، ولا يدري كيف السبيلُ إلى الاجتماع بحبّه! فهو يرى فيها كلّ النساء ويحبّها أشدّ الحبّ، بل إنّه كان يرتبُ لتأسيس مكتبِ سياحة ليعملا فيه معًا فإنْ نجحت العواصفُ في اجتثاث شجرةِ الحبّ وهدمِ بيته، فكيف يمكن التفريقُ بينهما في العملِ وكلّ منهما استثمر فيه كلّ ما يملك مِن مالٍ.

كان عاطفُ مقتنعًا أنّ سعادةَ صاحبه لن تكونَ إلا مع سارةَ كما أنّه مقتنعٌ كذلك بأنّه لا قوةَ في الكونِ تستطيعُ أن تنتزعَ الحبّ من قلبِ عاشقٍ، ولا يحقُّ لمخلوقٍ أنْ يقرر لأحدٍ أنْ يحبّ أو يكرَه أو يتزوجَ، وأنّ الحبّ إنما يطرقُ البابَ مرةً واحدةً، فإما أنْ تفتحَ له وتكرمه بالوفاءِ والبذل أو أنّه لن يعودَ أبدًا، وكم مِن النّاس لم تمر رايةُ الحبّ في طريق حياته ولم يطرق الحبُّ بابَه فتزوج مَن لا يحبُّ وارتضى العشرةَ أنْ تجلبَ المحبّةَ ولم يعرف سوى حبّ العشرة حبًا.

اتصل عاطفُ بآدمَ وقال له: تعال نخططُ لاجتماعك بمَن تحبُّ، ولم يتعجب آدمُ لأنّه متأكدٌ أنّ عاطفًا هو أوّلُ مَن ستلجأ إليه أمُّه فهو صديقُ العمرِ ورفيقُ الروحِ.

جاء آدمُ منكسرَ النفس من إهانة أمّه ورميه بالمزهرية تريدُ إصابتَه لتجمعَ له أذى النفس والجسدِ، وطفقَ يحكى لصديقِه عن حبّه لسارةَ، وكأنّه يريدُ أن يسكّن ألمَ روحه ويرأبَ صدعَ نفسه ويهرب مِن ضيقِ الحزن إلى فضاءِ الحبّ، وأنّ حاله برؤية سارة وأولادها لا يقلُّ في حرارته عن حبّ مجنون ليلى وعنترة، وأنّه نفسَه لم يكن يتخيلُ أنْ يكونَ لأحدٍ في نفسِه كلّ هذا الحبّ، وأنّ حبّه لأولادها لا يقلُّ عن حبّه لها فهو لا يصبرُ على رؤيتِهم ومحادثتهم حتّى أنّ سارةَ كانت تقولُ له لو أنّ أباهم أحبّهم ولو بعُشر ما تفعلُ لكانوا أسعدَ أطفالِ الدنيا، أخذ آدمُ يصفُ حالَه ولا يداري دموعَه الحارة التي تحكى قصةَ حبٍ خالدٍ وتشكى أحكامَ مجتمعٍ ظالمٍ.

لم يقاطع عاطفُ صاحبَه وتركه حتّى أفرغَ مكنونَ الغضبِ والوجد مِن قلبه، وطلبَ منه النومَ في حجرتِه هذه الليلة على أنْ يخططوا في نهارٍ جديدٍ لحياةٍ جديدةٍ.

اتصل عاطفُ بسعادَ يخبرها أنّ آدمَ بخيرٍ وأنّه سيبيتُ عندَه هذه الليلة، ووعدَها

بالحلّ القريبِ للأزمةِ.

بدأ التخطيطَ في اليوم التالي لهدفٍ واحدٍ، وهو كيف يتزوجُ آدمُ بسارة ومسكنُه الذي جهزّه أبوه يقعُ في الطابقِ الأعلى لمسكن أمّه، وهنا بدأ كلّ مِن الصديقين حصرَ ما يملكون مِن الأموال والاتصال بسارة لترتيب مراسمِ الزواجِ والسفر إلى أخيها للاتفاقِ معه حولَ التفاصيل؛ حيث كانت تعيشُ مع أبيها في بيتِه قبلَ وفاته، وقد اقتنع أخوها أنْ يعيشَ معها آدمُ في نفسِ البيتِ بعد الزواجِ مقابل دفع إيجارٍ شهري مناسبٍ للشقةِ بدلًا من استئجار شقةٍ جديدةٍ، وقد أوضحا له ملابساتِ الأمر، وأنّ العاصفةَ لن تلبثَ أن تهدأ ويعودَ آدمُ إلى مسكنِه مع زوجته وأبنائها الذين هم أبناؤه، ولن يتخلى أبدًا عنهم، تواصل آدمُ مع أعمامِه ليخبرَهم ويكونوا معه أو حتّى يباركوا خطوته، وبعد أنْ حاولوا نُصحَه بالتخلي، ومقابلة ذلك بإصراره لم يرضَ أحدٌ منهم أن يُغضب سعادَ بالحضور معه في مراسمِ الزواجِ، والذي تمّ في ظلّ غضبٍ وثورةٍ عارمةٍ، تجدد سعادُ جولاتها، وتشعلُ نارها حتّى لا تهدأ وتنجحُ في إجهاض الزواج ولكن كلّ ذلك لم يفلح، وتزوجَ آدمُ بحبيبته، ولم يتوقف دورُ عاطفٍ عندَ ذلك، بل كان يتحملُ إهانةَ سعادَ له لأجلِ صاحبِه، ويتابعُ الزياراتِ لها والاتصالات لعلّ قلبها أنْ يلينَ وترقَّ لحالِ ابنها، ولكن في كلّ مرّة تصدُّ عاطفًا وتقول له: كان لي ابنٌ وماتَ، وما أعيشه الآن ألمُ الفراقِ، ولم يكن ردّها هذا لعاطف وحده وإنّما لكلّ مَن يحاولُ استدرار عطفها بأنْ تسامحَه، فتردّ عن مَن تريدونني أنْ أصفحَ، فقد مات ولدي وانتهى.

حتى أنّه حاول أنْ يذهبَ وسارةَ لزيارتها وما إنْ فتحت ورأت وجهيهما حتّى أغلقتِ البابَ وهي تشتمُ وتسبُ، وإذا بسارةَ هي التي تواسى زوجَها، وتقولُ له: لا تحزن لأنها سبتني ورمتني بتلك الاتهاماتِ، فأنا أتحملُ لأجلك كلّ شيء، وإنّما أريدُك ألا تفقدَ الأملَ فسيأتي اليومُ الذي ترتمي فيه بأحضانِها ولا أظنُّه بعيدًا، وما دُمنا معًا فليس في هذه الدنيا كلّها ثمة مشكلةٌ.

مرت الأيامُ ولم تتوقف مساعي العودة إلى حضنِ الأمّ، وَردّ سعادَ لا يتغيرُ، وموقفُها لا يتبدّلُ حتّى رُزق آدمُ ببنتٍ، واقترح على سارةَ أنْ يُسميها سعادَ؛ تقديرًا

لأمّه وتعزيزًا لروابط العائلة، وإيصالًا لرسالة مفادها أنّ الخلاف لا يمكنه أنْ يضعفَ الرابطةَ الروحيةَ وإن غابت الوجوه، ورأى آدمُ أنّ الفرصةَ سانحةٌ أنْ يستعين بعمّه الأكبر ليصحبه في زيارةِ أمّه وهو يحملُ طفلتَه التي تحملُ نفس اسم أمّه.

استجاب العمُّ وفي اليوم السابع حملَ طفلته وانطلقَ مع عمّه الذي نصحه أنْ ينتظرَ بالخارجِ إلى أنْ يأذن له، وبالفعل ما إنْ رأت سعادُ حفيدتها حتّى طار قلبها فرحًا وهي تحتضنها وتقبّل كلّ مكانٍ في جسدها الصغير وعمّ آدم يسألها أتدرين ما اسمُها؟ سعادُ كاسمِكِ، لم يرضَ آدمُ ولا سارةُ عن اسمك بديلًا، أجهشت سعادُ بالبكاءِ وهي تحتضنُ حفيدتَها وعندها تحرّك العمُّ تجاه البابِ ينادي آدمَ والذي انكبّ على يدِ أمّه يقبلُها وهي تحملُ الطفلةَ ويقبلُ رأسَها وهو يقولُ سامحيني يا أمي ولا تلومي أحدًا طرقَ الحبُّ بابَه.

مِن رحمِ المُعاناةِ

ينادي بصوتٍ نافذ الصبر لو أحصلُ على عشرِ مِعشارِ اهتمامك بهذا الطفلِ؛ لكنتُ سيدَ الرجال، الملابسُ لم تكوَ والإفطارُ غيرُ جاهزٍ، وأتأخرُ يوميًا عن العملِ بسببِ طفلٍ متوحدٍ لن يشعرَ بعنايةٍ ولا يفيدُه اهتمامٌ؛ ألم أقل مرارًا إنَّ الحلَّ الوحيدَ لهذا الطفلِ إيداعه في مركزٍ متخصصٍ يعتني به ويرعاه، ويرفعُ عنّا هذا الضغطَ وتلك المعاناة، سنين وأنتِ تحاولين فهم احتياجاتِه والتواصل معه وترويضه دونما أيّ تقدّم، وكُلمًا جئنا بجليسة لترعاه وتنهضَ بحاجاته لا تتحملُ أسبوعًا واحدًا وتفرُّ بدون حتّى أن تطلب أجرًا، إلى متى نقدّم تضحياتٍ دونما أيّ نتيجة؟ لم أعد أحتملُ هذا الإهمالَ والتفريطَ في حقوقي، فإمّا أنْ نودعَ هذا الطفلَ مركزًا متخصصًا داخليًا فيريحنا من أعباءه وسأدفع مهما كان المقابل، أو سأغيبُ عن هذه الحياةِ؛ ليكون عندك مساحةٌ أكبر للاهتمام به.

احتضنت آمالُ ابنها المتوحدَ ودموعُها تنهمرُ، وهي تردُّ على زوجِها لن أفرّط في ملاكي الصغير، لم تشعر آمالُ أنها تحررت مِن أسر زوجها، وأنّ روحها صارت خفيفةً إلا بعد طلاقها، فلم تكن تألو جهدًا في النهوضِ بحاجاتِه والاهتمام به، ولكنّه لم يكن يفوّت فرصةً دون تأنيبها وإشعارها بالتقصيرِ لأقلِ سببٍ، وليس ذلك بسبب تقصيرٍ حقيقي بقدر ما هو استخسار لجهدها أنْ يذهب فيما لا يُجدي نفعًا ولا يعود بنتيجةٍ كما يتصور، وليس بعجيب أنْ ينفر أبٌ من ابنه، ويتخلى عن دوره ويتجاهلُ حقَّه، فليست الأبوة غريزةً كالأمومة والتي لها مركزٌ مخصوصٌ في الدماغ يجعل الأمَّ تُسكن أبناءها عينيها وتغطيهم بالجفون، وتسهر الليالي على راحتهم لا تملُّ.

كرست آمالُ حياتَها لوحيديها، وجعلته مشروعَ حياتها، تقرأُ الكتبَ عن حالته، تستشيرُ المختصين، تجرّبُ الطرقَ والوسائلَ المختلفةَ، ولم تفقد الأملَ يومًا في استجابته وتحسّنه، وكانت كلمًا تألمت مِن الوحدةِ وشعرت أنها بحاجةٍ لسندٍ - فقد كان أبوها هو آخر عائلتها والذي توفي بعد زواجِها بعامين - تجد في الكتابةِ ملاذًا ومنفذًا، تفرغ فيه أفكارَها ومشاعرَها المكبوتَةَ، وكُلمًا تقدّمت في كتابتِها تشعرُ بالراحةِ والتحرر من قيودِ الوحدةِ والحزنِ، تأخذها كلماتُها في رحلةٍ إلى عوالمَ

جديدةٍ، فتارة تبتعدُ عن الواقعِ وتغوصُ في عالمِ الخيالِ والإبداعِ لتجد نفسَها محاطةً بالأصدقاءِ والشخصياتِ الخياليةِ التي تعيشُ معها مغامراتٍ شيقةٍ ومثيرةٍ، وتارة تكتبُ عن تجربتِها مع وحيدها لتتركَ دليلًا وإرشاداتٍ لتعزيز تنميةِ الطفلِ المتوحدِ، وكيف يمكن للأفرادِ تطوير مهاراتِ التواصلِ والتفاعلِ معه، وساهمت في خلقِ بيئةٍ مشجّعةٍ وداعمةٍ لتنميةِ وتطويرِ الأطفالِ المتوحدين بعمل صفحاتٍ و مجموعاتٍ على منصّات التواصل الاجتماعي، وندوات ولقاءات مع أهالي الأطفال المتوحدين لتبادلِ الخبراتِ والتجاربِ واستيعاب التحديات المشتركة وإيجاد الحلول المناسبة.

تحولت الكتابةُ عند آمال مِن هواية وملاذٍ تجد فيه السلامَ والتعبيرَ بكلِّ حرية إلى شغفٍ لا يمكن الاستغناء عنه، فخصصت وقتًا يوميًا لها، وكلّمًا كتبت أكثرَ تفتحت آفاقُها وتوسعت رؤيتُها وتطور أسلوبُها، والذي بدأ يجذبُ انتباه القراءِ على الصفحاتِ والمجموعاتِ، والتي تشارك معهم آمالُ بعضَ المنشورات ذات المحتوى الخاص بالتعاملِ مع أطفالِ التوحدِ تارةً، ومعلومات وأفكار أو قصص قصيرة فيها عبرةٌ وفائدةٌ تارةً أخرى، فطلبوا منها تنظيمَ هذا المحتوى وتجميعَ الأفكارِ المتناثرة في كتابٍ؛ ليَعمَّ النفعُ، وتعظم الفائدةُ، وكذا تجميع القصص القصيرة في مجموعةٍ قصصيةٍ، والتي سترغبُ العديدُ مِن دُور النشر في تبنيها، وهو ما استجابت له آمالُ فبدأت بمجموعةٍ قصصٍ قصيرةٍ، والتي رحبت واحتفت بها دارُ النشرِ ورأت فيها موهبةً شابةً وطاقةً إبداعيةً ومشروعَ كاتبةٍ مِن طرازٍ رفيعٍ، قامت الدارُ بالترويج للكاتبةِ الصاعدةِ، وتنظيم ندواتٍ وفعالياتٍ ثقافية لاستعراضِ العملِ والتفاعلِ مع الجمهورِ المهتمِ بالقراءةِ، وساعد في انتشارِ العملِ و شهرةُ آمالَ توزيعِ الكتابِ على عددٍ مِن دورِ النشر بمعرض الكتابِ الدولي ، وتوالت الطبعاتُ والإصداراتُ مِن قصص قصيرةٍ وروايات وكتب عن الرعاية بطفلِ التوحد، حتى حصلت على جائزةِ الدولةِ التقديريةِ، وبعد استلامِ الجائزة ودعوتها للمنصة لإلقاء كلمةٍ حكت فيها آمالُ قصتها مع الكتابةِ، وكيف كان التوحدُ وبعده الانفصالُ هما السبيل لإخراج طاقةِ الإبداعِ الكامنةِ، وكأنّ الإبداعَ يأبى إلا أنْ يَخرجَ مِن رحم المعاناة.

عش خفيفًا لطيفًا

كان مهيبَ الجانبِ، عظيمَ القدرِ، يخشاه الكبيرُ والصغيرُ، فلا يستطيعُ أيُّ مديرٍ بالشركة أن يناقشه في قرارٍ، وهو الرجلُ الثاني في الشركةِ، ويمتلكُ مِن الشدةِ والصعوبةِ في المعاملةِ ما يجعلُ كلّ مَن يريدُ إقناعَه أو مناقشتَه في أمرٍ يتردد ألف مرةٍ، وحتى النادل إذا طلبَ منه مشروبًا فيقدّمه على كلّ مَن طلب قبلَه، ويهرعُ إلى مكتبه اتقاءً لغضبه.

كان يشتكي الجميعُ مِن شخصيته الصعبةِ، ولكم شوهدت موظفاتٌ يخرجنَ مِن مكتبِه مباشرةً إلى حمّامِ النساءِ يبكين قسوتَه وطريقتَه الفظةَ، فينطلقُ ورائهن مَن يواسيهنَّ ويربت على أكتافهنَّ.

كانت لديه قناعةٌ أنَّ الشدّةَ هي الأصلُ والأساس كي ينضبطَ الجميعُ، ويؤدي كلّ موظفٍ ما عليه من واجباتٍ، ورغم قضاءه الساعاتِ الطوال في العمل إلا أنّه لم يكن يسمحُ مطلقًا لسيارتِه المخصصةِ له مِن الشركة أن تُقلَّ أحدًا أبدًا غيرَه أو أن يستعيرَها رئيسُ حملةِ السياراتِ ولو لساعةٍ للمساعدةِ في حلِّ أزمةٍ أو مشكلةٍ عارضةٍ، وعودتها بعدَها لتستقرَ باقي اليوم أسفل مبنى الشركة تنتظرُ خروجَه، وعندما اضطر رئيسُ الحملةِ لاستبدالِ سيارتِه ذاتَ يومٍ لاستخدامِها للسفرِ لجلبِ أحدِ الخبراءِ، وما إنْ خرجَ في نهايةِ اليومِ ليجدَ سيارةً أخرى تنتظرُه، وسائقُه يفتحُ له البابَ حتّى انفجرَ غضبًا، وطفقَ يعنّفُ السائقَ، ويصيحُ به ويلومُه على استبدالِ السيارةِ في ذهولٍ مِن السائقِ، وهو يحدّثُ نفسَه دونَ أنْ ينطقَ، ويقولُ كأنّها سيارتُك التي اشتراها لك أبوك، وليست سيارةَ الشركةِ، وما يضرُّكَ أن تتبدلَ ليومٍ أو أكثرَ، فأيُّ سيارة سوف توصلك إلى المكان الذي تريد؟! لم يستطع السائقُ النطقَ بكلمةٍ أو محاولة تبريرٍ أو تبرئة ساحتِه أو حتّى يقول له: وما ذنبي؟ إنما ذهبتُ لاستلامِ السيارةِ مِن الجراجِ فتسلّمتُ هذه بدلًا منها، ولكنّه سكتَ لعلّ رئيسَ القطاع هذا يسكتُ، ولكنّه استمر في اللومِ والتوبيخِ، ولم يوقفه إلا وصولُه لبيتِه واضطراره للنزول.

مرت سنواتُ عملِ هشام زهران على نفسِ الحال، ورصيدُ الضيق في قلوب النّاسِ

يزداد، وكأنّه لم يكن يُدرك أنّ لعملِه في الشركة نهايةً، وأنّ مركزَه وإنْ طال فهو مؤقتٌ، وأنّ ما يزرعُه في قلوب النّاس هو الباقي حتّى بعدَ موته.

مرت الأيامُ سريعةً كعادتها ليقتربَ حفلُ التقاعدِ ببلوغه سنّ المعاشِ، وكان المعتادُ فيما سبق تجميع مبالغٍ مِن العاملين؛ لإقامةِ حفلٍ، وعمل وليمةٍ، وشراء الهدايا الخالدة والصور التذكارية، إلا في هذه المرةِ عندما انطلق مديرُ مكتبِه للمديرين في القطاعاتِ المختلفة يذكّرُهم بيومِ التقاعدِ، ويرتبُ مراسمَ الاحتفالِ، والذي لم يرحب أحدٌ بالمشاركةِ فيه، أو حتّى الاستجابة بالحضورِ، وهو ما حاولَ استدراكَه العاملون بمكتبه، فأخبروه أنّهم نظموا احتفالًا خاصًا بهم فقط في حجرةِ الاجتماعاتِ، ولم يدعوا أحدًا مِن خارج القطاع، أحضروا بعضَ الحلوى والهدايا لحفظِ ماء وجه رئيس قطاعِهم وعدم إشعاره بشيءٍ.

لكن ما هي إلا أيامٌ وأدرك مقامَه ومكانته في قلوبِ النّاسِ، بعد أن تمّ التعاقد معه لمدة ستة أشهرٍ كمستشارٍ، وهو الأمرُ المتبعُ في الشركة منذُ إنشائها كنوعٍ من التقديرِ والامتنانِ عن الجهد المبذول في رحلةِ العملِ، إلا أنّه عقدٌ بلا أيّ صلاحيات، فلم يعد له توقيعٌ أو اعتمادٌ على أيّ مستندٍ أو إجراءٍ، حتّى سيارته لم تعد تحت تصرفه، ومكتبُه الضخمُ متعددُ الحجراتِ والملحقُ به حجرةُ اجتماعاتٍ وحجرةٌ لكبار الزوار يخرجُ منه ليستقر بمكتبٍ يشاركه فيه آخرون، تبدلت أحوالُه وتغيّرت دنياه، وتحوّل تبجيلُ النّاس وتوقيرهم له اتقاءً لشرّه إلى إهمالٍ وتهاونٍ ولا مبالاة، فلا يكادُ يلقي عليه السلامَ إلا القليلُ، ورئيسُ حملةِ السيارات الذي طالما ثارَ وغضبَ عليه لأسبابٍ تافهة لم يفكر أبدًا في إدراجه في خطوطِ السير اليومية لجلبه مِن بيته، كما فعل مع المستشارين مِن قبله، بل حتّى سائقي سياراتِ الشركة لم يفكر أحدٌ منهم أنْ يقفَ له إذا قابله يومًا بالطريق يعرضُ عليه إيصاله، حتّى جاء ذلك اليومُ الراعدُ المطيرُ، والذي نزل فيه هشام زهران مِن بيته لم ينكله سوء الطقس، فهو لم يعتد بعد القعودَ في البيت بعدَ تلك السنواتِ، كما أنّ التعاقدَ يوشكُ أنْ ينتهي وعندها سيقعد جبرًا وقسرًا.

وقف طويلًا أمامَ بيته ينتظر سيارةَ أجرةٍ، ولكن دون جدوى، فقرر التحركَ مِن

موقعه والسير لعلّه يقابلُ سيارةً تُقلّه إلى الشركة، المطرُ يهطلُ كأفواه القِرب، وملابسُه تشرّبت المياه، وأخذت تمطرُ هي الأخرى، إلى أن رأى سيارتَه التي سُلبت منه، وسائقُه الذي عملَ معه سنين يقتربُ في مواجهته، فاستبشر ووقف ينتظرُ وقوفَ السائقِ له، وكانت الطعنةُ التي استقرت في فؤادِه، فلم يقف السائقُ، ومرّ وهو ينظرُ في عينيه بلا اكتراث ولا شفقة، توقفت حركةُ الحياة، ودارت الدنيا مِن حوله وكأنّما تبدلت الأرضُ والسماءُ، وقف هشام زهران ذو السطوة والبطش والقرار النافذ، وقد ابتل كالعصفورِ في ليالي الشتاء، وقف ولم تقدر قدماه على حمله أو السير به خطوة، وكأنّما زُرعت الأرضُ مِن حوله بالشوكِ، فلا يستطيعُ أن يخطوَ، انهمرت دموعٌ حارةٌ على وجنتيه، وهو يحدثُ نفسَه بالطبع لن يقف لي هذا السائق الذي طالما انتهرته وزجرته وصحتُ به لأتفه الأسبابِ، فأنا مَن زرعتُ أرضي شوكًا، فكيف للنّاس أن تسيرَ إليّ أو تصلني، ظللتُ سنواتٍ أحرقُ كلّ مَن اقتربَ مِن مداري حتّى غادرت كلّ الكواكبِ؛ لم أعد أريد شيئًا في هذه الحياة، أنا فقط أريدُ أن أعودَ إلى بيتي ولا أخرجُ لهذا العالمَ الذي لم أفلح أن أجعله وطنًا لي، ولو كنت أعلم أنّ الدنيا تتقلبُ هكذا بأهلها لعشتُ حياتي خفيفًا لطيفًا.

عين الرزق تراك

كان منتصف الأسبوع والبرد قارس، والجميعُ متردد في السفرِ لجلب ما يحتاجُه المحلُّ مِن بضائعَ مِن القاهرة، واستقر رأيُ الأصدقاءِ على السفرِ، فالشبابُ مغامرةٌ وإقدامٌ خصوصًا أنَّ الموجةَ الباردةَ قد تستمرُ لأيامٍ، انطلقوا فجرًا ليصلوا قبيل صلاةِ الظهرِ، يتنقلون من مكانٍ لآخرَ، ومن تاجرٍ لغيره، ولم يشعروا إلا وأذانُ العشاءِ يُرفع، ولم يتبقَ لهم إلا القليلُ، اقترحَ حسام أنْ يأخذوا هدنةً للصلاةِ وتناول الغذاء والاستراحة قليلًا إلا أنَّ علاء الأكبر سنًا والأكثر خبرةً في الحياةِ أشار عليهم أن يصمدوا حتّى ينتهوا من التسوقِ، وأنَّه سوف يصحبُهم إلى مطعمٍ على حدودِ المدينة في طريق الرجوعِ، وهو مِن أجملِ المطاعمِ، ويأتيه النَّاس مِن كلِّ مكانٍ، وهو حقًا يستحقُ الانتظارَ والصبرَ، استجاب الجميعُ وتحمّسوا للذهابِ للمطعمِ، واقتنعوا باحتساء القهوةِ فقط بعد الصلاةِ، وبعد انتهاء التسوقِ وشحنِ البضائع انطلق الجميعُ وهم يتضورون جوعًا في شوقٍ إلى لقاءِ هذا المطعمِ، وهم يتخيلون أطباقَه الشهيةَ، ويجرى ريقُهم، وعلاءُ يحدّثُهم عن أصنافه التي اشتهر بها، والتي جرّبها بنفسه كثيرًا، ولكن هذه المرة ثمة شيءٌ غريبٌ، لم يكن في المطعم أحدٌ سوى علاء وأصحابِه، وعندما سأله حسامٌ هل أنتَ متأكد أنَّه نفسُ المطعم الذي حدثتنا عنه؟ قال بالطبع هو، ومِن المؤكّد أنَّ الطقسَ العاصفَ سببُ الإحجامِ، فليس كلّ النَّاس مثلَنا يسافرون خمسمائة كيلو في مثل هذا الجوِّ.

وما إنْ بدأ النادلُ في تقديمِ الأطباق كلًا وفق رغبتِه وطلبِه، إلا وأعينُ الجميعِ ترمق علاءً وقد ارتسمت على وجوهم علاماتُ الضيقِ والتبرمِ مِن مذاقِ الطعامِ الذي لم يعجب أحدًا منهم على اختلاف الأصنافِ، وكأنَّه تمّ طبخُه مِن أيامٍ، والاحتفاظ به في الثلاجةِ، وما قاموا به إنَّما إعادةُ تسخنيه وتقديمه لهم.

وبعد تعبير علاء عن استياءه مِن الطعامِ للعاملين ولومهم على تدني مستوى الأداءِ، وأنَّهم لم يطعموا شيئًا منذُ الصباح على أملِ الاستمتاعِ والهناءِ بالطعامِ في نهاية اليوم، وإذا بخيبةِ الأملِ والإحباطِ هما الشعورُ المخيمُ على الجميعِ.

اعتذر الشيفُ بحرارة وعرض عليهم طهو طعامٍ جديدٍ، ولن يستغرقَ الأمرُ أكثرَ مِن

ساعةٍ، بالطبع رفض علاءٌ وأصدقاؤه؛ فقد بلغَ التعبُ منهم مبلغَه، وقد قنع بعضُهم باللقيماتِ التي أكلَها حتّى يعود لبيته، قرر علاءٌ أن يتحمّل وحدَه فاتورةَ العشاءِ، ولم يسمح لأحدٍ بالسدادِ؛ لأنّه صاحبُ الفكرةِ والسببُ في هذه التجربةِ غيرِ السارةِ، ولا يريدُ أن يجتمع لأصحابه ألمُ فقد المال مع فسادِ التجربةِ.

قدم المطعمُ خصمًا لنصف مبلغ الفاتورةِ كاعتذارٍ مع تغليف ما تبقى مِن طعامٍ ليصحبوه معهم، والذي أخذوه وهم فيه زاهدون، وعادوا أدراجهم.

لم يتحمل الأصدقاءُ طويلًا حتّى طلبوا مِن السائق سليم قبيل منتصف الطريق أنْ ينعطفَ إلى أقرب محلٍّ ملحقٍ بالبنزينة ليتناولوا بعضَ المخبوزات تقيم أودهم، فأجابَ سليمٌ سأخرجُ مِن الطريقِ الرئيس؛ لنسيرَ على طريقِ الخدمات ليسهلَ التحولُ إلى أقربِ بنزينة، وجاوز سليمٌ المخرجَ الذي يفترض أن ينعطف منه إلى طريق الخدماتِ، واعتذر وقال سأنتبه إلى المخرج القادم والذي تجاوزه أيضًا عن غيرِ قصدٍ، فصاح به حسام معاتبًا ومتهمًا يبدو أنّك لا تشعرُ بحالنا، أم أنّه سرك طعامُ هذا المطعم فما رأيتك إلا أكلت طعامك كلّه وفوّتَ علينا مخرجين حتّى الآن.

رد مدافعًا: والله ما تجاوزتُ المخارجُ قاصدًا، وإنّما الظلامُ الدامسُ وانطفاء ضوءِ أعمدة الإنارة، وبالفعل أكلت طعامي كلّه فلم يكن المذاق مطلبي ولا غايتي وإنّما سدّ جوعي، ولم يكمل حديثه حتّى قال ها هو مخرجٌ قريبٌ ننعطفُ منه إلى طريقِ الخدمات ثمّ إلى تلك البنزية الجديدةِ.

قال حسامٌ أكمل طريقَك ولا تنعطف أظنُّها ما زالت تحتَ الإنشاءِ، مما يعني أنّ المحلَّ المرفقَ بها غيرُ مكتملٍ، انعطفَ سليمٌ في ثقةٍ، وقال طالما أنّ اللافتات التي تحملُ اسمها مضيئةٌ إذا فهي تعملُ، ونزل الجميعُ مِن السيارةِ ودخلوا يأكلون ويشربون، ولمّا فقد علاء السائقَ وسأل عنه، أخبره الأصدقاء أنّه لم يدخل معهم، فخرج يتفقّده لعلَّ كلامَ حسام أحزنه، وإذا به يضئ كشافَ الهاتفِ، ويحدّق في الظلامِ عندَ أسفلِ التلة التي يقام عند حافتها السور المحيط بالبنزنية وما بها من محلاتٍ، ولما سأله علاءٌ ماذا تفعل؟ قال سمعتُ أصواتَ جراء، ماذا تقصد بجراء؟ سأل علاء مستفهمًا؛ قال جمع جرو وهو صغيرُ الكلب، والعجبُ مِن وجودهم في تلك

الصحراءِ في الظلامِ والبردِ، ولماذا نباحُهم هزيلٌ، وصوتُهم مُنهكٌ كأنهم يموتون؟ صمتَ علاءٌ لحظةً، وقال بالفعل بدأتُ أسمعُ، وأضاءَ كشافَ هاتفه، وبدأ ينزلُ بحرصٍ مع سليم مِن أعلى التلة ليستكشفا الأمرَ، وإذا بخمسةِ جراء أنهكَهم الجوعُ والبردُ عن الصعودِ أعلى التلة لطلبِ الطعامِ، وإذا بأمِّهم ميتةٌ، وقد انتفخ جسمُها مما يدلُ على أنَّ موتَها تجاوز الساعاتِ إلى أيامٍ، والصغارُ لم يطعموا شيئًا، صعد علاءٌ وسليمٌ ليخبروا الأصدقاءَ والذين قاموا إلى السيارة ليأخذوا الطعامَ، وينزلوا مِن حافةِ التلة حتَى وصلوا للصغارِ الذين لا تزيدُ أعمارُهم عن ثلاثةِ شهورٍ، وما إن فتحوا أكياسَ الطعامِ ووضعوها أمامَهم حتَى انقضوا عليها في شراهةٍ ونهمٍ شديدٍ، وسليم يوثّق هذه اللحظاتِ بتصويرها فيديو بكاميرا الهاتف، وهو يخاطبُ حسامًا ويقول: هل عرفت الآن لماذا تدهور مستوى المطعم اليوم؟ ولماذا فوتنا مخرجين؟ لأجل إطعامِ هؤلاء الصغارِ، ويكملُ والدموعُ تتحركُ في عينيه سأرسلُ هذا الفيديو لكلِّ مَن يخافُ مِن المستقبلِ أو يخشى فواتَ الرزقِ أو يسيء الظنَّ بالخالقِ، وأحكي له هذه الحكايةَ، فما كانَ مِن حسام إلا أنْ نظرَ إلى علاءٍ وسألَ كم دفعت في هذا العشاءِ؟ لن أتركك تذهبُ بالأجرِ وحدك، وسنشاركُ جميعًا في الأجرِ بأن ندفعَ في عشاءِ الصغارِ الذين ماتت أمُّهم.

صديقتي الوسادة

تموت فائزةُ، وتترك غادةَ صاحبة الثلاثين خريفًا وحدَها في بيتٍ واسعٍ فسيحٍ، ضاقَ بغيابِ فائزةَ، حتّى أضحى كالقبرِ، ولكن خالد أخوها يسكن فوقها مع أسرته، ولن يتركها وسيملأ أولاده عليها حياتَها، فلا تكادُ تصلُ للبيتِ بعد يومِ العملِ حتّى تجدهم في شُرفةِ الحجرة المطلةِ على الشارعِ، يسارعون عند رؤيتها، ويتسابقون للحصولِ على الحلوى اليوميةِ، وسيغنيها الأنسُ بهم عن تجرعِ مرارةِ الفقدِ ومعاناة ألمِ الوحدةِ، وهو ما لم يطل بعد أن نقل خالدٌ حياتَه لبلدةٍ بعيدةٍ عن غادةَ بعد نقله مِن عملِه لفرعٍ جديدٍ من فروعِ الشركةِ، ولم يستطع مقاومةَ إغراء الراتبِ ولا المنصب الجديد، لم يقلّ ألمُ فراق خالد وأولاده عن فراق فائزة، وقد حاول خالدٌ كثيرًا إقناعَ غادةَ بالانتقالِ معهم، ولا داع للعمل، فمعاش أبيها يكفيها بعد الاستقالة، وأنّه لن ينقصها شيئًا، ولم تجدي محاولاته ولا استجداءُ أولاده الذين يحبّون عمّتهم أشدّ الحبّ، فلم تكن تشتري مِن راتبها لنفسها شيئًا، وإنّما كانت تشترى السعادةَ التي تجدها في بسماتِ الأطفالِ وفرحتهم بما تشتري لهم.

مرت الليلةُ الأولى لانتقالِ خالدٍ كأنّها سنةٌ، فلم تكفِ الدموعُ التي سكبتها غادةُ حتّى بللت الوسادةَ أن تغسلَ الحزنَ وتُسلم العينَ إلى النومِ، وإنّما باتت ليلتها تكلّم الوسادةَ، وتشكو لها متوجعةً قسوةَ الزمانِ الذي لم يكتفِ أنْ سرق منها رداءَ العطفِ والرحمةِ بموت أمّها، والآن يعودُ ليسرقَ بقايا بهجةِ الحياة، فيسلب منها أعزاءها، ماذا يريد مني؟! وماذا عساه يستفيدُ بوحدتي ودموعي، ولم يلتئم جرحُ أحمدَ الذي عصى أمرَ قلبِه، وخان عهدَ الحبّ الأبدي، ووأد أحلامَ البيتِ الدافئةِ يوم أنْ أطاع أمّه، وتركني لأنّي أكبره بستةِ أشهرٍ؛ مراعاةً للأعرافِ الاجتماعيةِ، وخوفًا مِن حديثِ النّاسِ، وغادرَ وجرحى ينزفُ غير مكترثٍ، ولكنى لا أشكُّ في حبّه، وأنّ قلبَه ليس فيه إلا أنا، ولكن ما الفائدةُ، ولماذا أتذكّره الآن وقد بذلت كلّ ما يمكن لنسيانه، وتشويه صورته الجميلة في وجداني بعد أن محوتُ كلّ صوره مِن هاتفي، أم أن نسيان الحب محض وهم؟ فهو باقٍ في النفس محفورٌ في الخيال، تلجأ إليه الروحُ عندما تثقلُها الهمومُ، وتتوالى عليها صفعاتُ الأيام، ألم يأنِ لهذا الزمانِ أنْ يصالحني

ويصارحني بجرمي الذي يعاقبني به مِن سنواتٍ، وأنا لم أحمل لأحدٍ يومًا كرهًا ولا ضغينةً، ولا آذيت إنسانًا بقولٍ ولا فعلٍ، وإن كان الحبُّ جرمًا فهو إذًا جرمي الوحيد، قامت غادةُ تلبي نداءَ الفجرِ وتدعو في صلاتها بدعاءٍ لم تقصده، وإنَّما انساب على لسانِها بغير نيّةٍ ولا ترتيبٍ «اللهم اجمعني بأحمدَ» وتردده و تلحّ به طويلًا، حتّى انتبهت متعجبةً ما هذا الذي أدعو به وهو المتزوج والأب لطفلين أم أني أريد أن اجتمع به حتّى ولو زوجةً ثانيةً؟! وهل يستحقُّ أن أدعو بهذا، أو حتّى أتخيله في نفسي بعدما كسر قلبي، وباع حبَّنا عند أولِ اختبارٍ، أم أن قلبي يلتمسُ الأنسَ باستحضار طيفه في الخيالِ واسمِه على اللسانِ!

هدأت نفسُ غادةَ بعد أن جلست تذكر الله حتّى الصباح، وتدعو لأمِّها وأبيها بالرحمة، وأن يؤنسَ وحدتَها، وخلدت لنوم طويل لم يوقظها إلا صوتُ المؤذن لصلاة العشاءِ، قامت جائعةً، وعزمت أن تخرج لتنعمَ بالعشاءِ في مطعمِها المفضلِ المطلِّ على الشاطئ، وهي تتمشى في ذهابِها والإياب ابتغاءَ النزهة، جاءها النادلُ مرحبًا فور وصولِها، واقترح معها أطباقَ العشاءِ، وهي تتأملُ مِن زجاجِ المطعمِ في حركةِ الحياةِ، والنَّاس على الشاطئ في انتظارِ العشاءِ.

وكانت المفاجأةُ غير المتوقعة والتي أذهلت غادةَ وغمرت وجدانها فرحةً وسرورًا، عندما رأت شخصًا يسحبُ الكرسي المقابلَ لطاولتها؛ ليجلسَ معها، وإذا هو أحمد الحبيبُ المفارقُ؟! ما الذي جاء بك وكيف عرفت أني هنا، وكيف أتتك الجرأةُ أنْ تجلسَ أمامي، وماذا تريدُ أن تقولَ، وعن أيِّ أمرٍ ستتحدثُ؟ قاطعها أحمدُ، لا تحرميني أن أكون ضيفَك، أجالسُك في تلك الدقائقِ نتبادلُ الهمومَ، فعندي مِن الأحزانِ جبالٌ، وكأنَّك كنتِ الأمانَ والحمايةَ من غوائلِ الدهرِ، وكأنَّ يوم أن ابتعدتُ عنكِ تنادت الأحزانُ والنكباتُ أيها يظفر بي أولًا.

تلألأت دمعةٌ وسقطت برقةٍ على خد غادةَ، ثمَّ نادت على النادلِ؛ ليحضر له من الطعام مثلها، وقد زادت شهيتها للطعام بمشاركته مع الحبيبِ، طفق يحكي عن ما أصابه في بُعدها وما يعيشُه، وأنَّ السعادةَ والهناءَ فارقاه بفراقها، وأنَّه نادمٌ على استسلامه لتسلط أمِّه رغم يقينها مِن حبِّه لغادةَ وتصديق أمِّه أنَّه سوف ينسى

بمجرد زواجه بأخرى، والذى لم يحدث أبدًا فلا يمكن لأحدٍ أنْ يملأ مكانَ أحدٍ، ظلّ أحمدُ يتحدثُ وغادة تسمعه، حتّى طال العشاءُ ساعتين، لم تشبع غادة من حديثه، ولم ينتهي مِن إفراغِ جعبة الأحزان، ولم ينتبها إلا لسؤال النادلِ عن رأيهما في الطعامِ وإن كان لهما أيُّ طلبات إضافية، شكرت غادةُ النادل، وقامت لغسلِ يديها؛ لتعودَ ولا تجدُ أحمدَ الذي انتظرته طويلًا لتناولِ المشروبِ ولم يعد، تعجبت ولم تستطع تفسيرَ غيابه، لا بدّ أنّه غادرَ المطعمَ، فمِن غير المعقول أن يتأخرَ في الحمّام كلّ هذا التأخيرِ، وطلبت غادةُ فاتورةَ الحسابِ، وسألت النادلَ باستغرابٍ لماذا بالفاتورة قيمة عشائي فقط، أم أن أحمدَ سدد حسابَ عشاءه وحده؟ فسألها النادلُ بلطفٍ مَن تقصدين يا سيدتي؟ قالت: أحمدَ الذي كان يتناولُ العشاءَ معي لمدة ساعتين، رد النادلُ باحترامٍ ووُدٍّ لم يكن على الطاولةِ أحدٌ غيرك، ولم يتناول أحدٌ معك العشاءَ، فزعت غادةُ وهي تسألُ وقد تعالت نبرةُ صوتها هل أنت متأكدٌ مما تقول؟ اذهب واسأل زملاءك، ذهبَ إرضاءً لها مع علمِه بالإجابةِ، اعتذر بشدة سيدتي لم يرَ أيٌّ من زملائي أحدًا يجلس معكِ على الطاولةِ، سددت غادةُ الفاتورةَ، وانطلقت مهرولةً فزعةً تريدُ أن تطوي المكانَ والزمانَ، حتّى تدخلَ إلى سريرها دونَ أن يراها أو يشعر بها أحدٌ حتّى تحتضن صديقتها الوسادة، تبكي عندها وتشكو إليها ما آل إليه حالَها وتحتمي بها مِن هذا العالمِ.

ميلاد الفرج

أفلتت سعادةُ من قبضة الظلم في غفلةٍ مِن الزمنِ، وهرعت لبيت السيدة سامية، والتي كانت سعادة تقم لها البيت وتسقى الزرع وتطعم الطيور وتعود في نهاية اليوم ببقايا طعامها وما عافه أبناءها من الملابس مع أجرة يومها والتي لا يتركها زوجها في حوزتها ولو لحظة بعد وصولها.

كان لسعادةَ ثلاثةٌ من البناتِ وخمسةٌ من البنين، كلُّهم يحملُ شبه أبيهم الذي لم يكن له نصيبٌ في جمال الخَلق ولا الخُلق، كما لم يكن لسعادةَ أيُّ حظٍ من اسمها، حتّى ذلك اليوم الذي استغاثت بالسيدة سامية لتنقذها وأولادَها من طغيان الظالم زوجِها وبطشِه بها وبأولادها، والذي ظهر على وجهها وأجسادِ أولادِها مِن تعذيبٍ وتنكيلٍ لا يفعلُه سجّانٌ بسجينه فضلًا أن يفعله أبٌ بأبنائه.

جلست سعادةُ في الأرض تقبّلُ يدَ السيدة ساميةَ وقدميها، وتتوسلُ إليها ألا تخرجَها مِن بيتها، فهي لا محالةَ هالكةٌ، ولقد استطار شرُّ زوجها ولم يجد له رادعًا، فلا يكفيه أن يجلبنا كلّ عامٍ مِن الصعيد لنقيمَ في حجرةٍ هي والسجنُ سواءٌ، ويتوزع الأبناءُ كلّ صباحٍ، هذا يجمعُ البلاستيك من مكبات النفايات، وآخرُ يعمل في البناءِ، وثالثٌ عامل نظافةٍ في مقهى، وأنا والبناتُ نخرجُ من بيتٍ إلى بيتٍ نجمعُ القمامةَ وننظفُ المراحيضَ، ونحتمل الأذى ونصبرُ، حتّى الولدين الصغيرين لم يسلما مِن طغيانه فيرسلهم كلّ صباحٍ لمعاونةِ صاحبِ ورشةِ أعمالٍ ميكانيكية، كلّ هذا وهو لا يعملُ، ولا يخرجُ مِن البيت إلا لشراءِ مخدراتٍ، والتي يعكفُ ساعاتِ الليل يتعاطاها مع أصحابِه، ولا يكادُ يطعمُنا إلا القليلَ، وفي صباحِ اليوم لم أستطع النهوضَ لألمٍ شديدٍ في ظهري، فقلتُ له: أسألك باللهِ أنْ تتركني أستريحُ اليومَ، فلا طاقةَ لي ولا قدرةَ على النهوض، فانتفض كأنّ به مسٌ مِن الجنّ، وتناول عصا المكنسةِ، وطفقَ يضربُ كالمجنونِ، ويقول هذا سيمنحكِ القوةَ الكافيةَ للنهوضِ، ولم يرحم صراخي، ولا استجداء البناتِ اللائي أوسعهن ضربًا معي بغير سببٍ، فخرجتُ أجري حافيةَ القدمين مع بناتي، ولم أفكّر في أحدٍ إلا أنتِ.

رقّت السيدةُ ساميةُ لحالِ سعادةَ وبناتها، وأخذت تجففُ دمعَها، وهي تلومُ سعادةَ

كيف تحتملين كلّ تلك السنين، ولماذا لم تخبريني قبل اليوم، وكيف لك أن تنجبي كلّ هذا العدد من رجل مثل هذا؟! ونادت على ابنها الأكبر، يا مهابُ! ستنزل سعادةُ وبناتُها معك لتجمع الطيور كلّها في الحجريتين بفناءِ البيت؛ لتذهب لذبح الطيورِ وتنظيفهم، وجلب سباكٍ معه طقم حمام فتكون حجراتُ الطيورِ إحداها للإقامةِ والأخرى حمام، سأل مهابٌ مشدوهًا أعشاشُ الطيور للإقامة كيف؟!

أخذت سعادةُ يديه تقبّلها وتستحلفه بالله أنْ يوافقَ، وهو في عجبٍ واندهاشٍ مِن قبولها العيش في هذا المكان، ويوازيه استغراب مِن عَرض أمّه مثل هذا العرض المهين في رأيه، ولكن لم يكن بدًا من رضوخ مهاب وتلبية ما قالت أمُّه حتّى يتفاجأ بالفرحةِ العارمةِ لسعادةَ وبناتها بالمسكنِ الجديدِ بعد تزويدِه بفراشٍ ومرتبةٍ، وكأنّما يسكنون فيلا أو قصرًا على النيل.

خرجت سعادةُ تتفقدُ أبناءها في مقارّ أعمالِهم لتجلبهم للمسكنِ الجديدِ دونَ أنْ يشعرَ أبوهم، وكان يوم عيدِهم هو يومُهم الأول للانعتاق مِن الاستبدادِ.

خرج أبوهم كالمجنون يبحثُ طوال الليل ويسألُ في كلّ مكانٍ متلهفًا يحترقُ داخلُه ليس شوقًا لهم وقلقًا عليهم وإنّما حزنًا على فوات جرعة الليل وأنس المساء، عاد في آخر الليل بعدما أعياه البحثُ، وقال لنفسه: لا سبيلَ أن أجدَهم إلا بالذهابِ لأماكن أعمالهم في الصباحِ، وبالفعل وجد ابنَه الأكبرَ مصطفى وهو يحملُ الطوبَ يناول البنّاء فانطلق صوبه كالمجنونِ يجذبُه مِن ملابسه بقوةٍ فيقعُ ومعه الطوبُ على رأسه ليكمل أبوه الفاجرُ ضربَه حتّى يُدمي وجهَه، وينقذه زملاؤه العمال، وقد همّوا بضرب أبيه وهو يصرخُ لا تضربوه إنّه أبي، واتركوه يفعل بي ما يشاءُ، خلّصه العمالُ مِن يديه، وأبعدوه وأخذوا مصطفى يغسلون الدمَ عن وجهه، ويضمدوا جراحَه، وساعةً عاد إلى أمّه بهذا المنظر والثياب ملطّخةٌ بدمه، حتّى صرخت وأخذت تلطمُ وجهَها، وتنعي حالَها، فخرج مهابٌ على صوتِ صراخِها، وما إن رأى مصطفى على هذا الحال حتّى استشاط غضبًا وفار الدمُ في عروقِه، وقال بغضبٍ: هيا يا مصطفى إلى مديرِ الأمنِ وسترى ماذا سأفعل بهذا الرجل، أشار مصطفى بكفيه وهو يبكي، بالله عليكَ لا تؤذيه، فهو أبي، وأكملت سعادةُ نحن نخافُ منه ونخشى

غضبَه وانتقامَه، قال مهابٌ سنحضره إلى مركزِ الشرطةِ ونأخذُ عليه تعهدًا بعدم التعرضِ، وإن فعل شيئًا بعدها فلا تلوموني، فأنتم في جواري وتحتَ حمايتي، ومن تعرّض لكم فكأنّما تعرّض لي.

وما إن أحضر مديرُ الأمنِ - والذي كان يعرف مهابًا وعائلته جيدًا - أبا مصطفى وحذّره وأبلغه أنّه على علمٍ بالمخدراتِ وندمائه حتّى أقسمَ أن يترك البلدَ، ويعود للصعيد، ولن يأتي إلى هنا ما بقي حيًا.

وكان صباح اليوم الذي غادر فيه هذا الظالمُ البلدَ هو بدايةُ النور والسعادةِ الحقيقية لسعادةَ وأولادِها، فقد ذاع صيتُهم في المنطقة كلّها، وأنهم يسكنون عند السيدة سامية في أعشاش الفراخِ، فسار الجيرانُ يساعدونهم، ويرسلون لهم اللحم والفاكهة، حتّى لجأت السيدة ساميةُ لتخصيص الثلاجة القديمة لما يرسلُه النّاس لسعادة، وكان مهابٌ ينظر من خلفِ الشباك إليهم، وهم مبتهجون في أعشاشِ الفراخ، وكأنّها القصرُ، وقد جعلوا مِن فناء البيت حديقةً لهذا القصرِ، كانت سعادةُ تعملُ وأولادُها، وتأتي في نهايةِ كلِّ يومٍ تنادي على السيدةِ سامية أو ابنها مهاب تستودعه ما كسبت مِن مالٍ، وعندما اجتمع مبلغٌ مِن المالِ بعد ستةِ شهور أشار عليها مهابٌ أنّه سيتاجر لها بهذا المال بدلًا مِن إيداعه في حسابِه حتّى ينمو ويستطيع أنْ يشتري لهم مسكنًا، فترد سعادة أنّه مالك افعل به ما تشاءُ، وفي نهايةِ العامِ الثاني من إقامتِهم عند السيدةِ سامية جاء أحدُ الخطّاب لزينبَ صاحبةِ الخمسة عشر عامًا، والذي فرحت به سعادةُ أشدَّ الفرحِ، ولكنّها قالت مهابٌ ولى أمرِها والرأيُ له، وبعد السؤال عنه وأيضًا إيضاح ظروف سعادة وأولادها، وأنّه ليس لهم مَن يرجعون إليه في الصعيد، وأنَّ مهابًا بمثابة أخٍ لسعادةَ وأبٍ لأولادها، حدثَ التراضي والتوافقُ، وتمّت الخِطبةُ في الفناءِ أمامَ أعشاش الفراخِ السابقةِ بعد أن امتلئ بالكراسي وأشرطة الزينة والأنوارِ.

ولم يمضِ وقتٌ طويل بعد خطبة البنت الكبرى حتّى استطاع مهابٌ إيجادَ مسكنٍ قريبٍ منهم مكوّن مِن ثلاثة طوابقَ، بكل طابقٍ شقةٌ مساحتها تسعون مترًا، وكان صاحبه يعرف جيدًا مهابًا ووالده قبل وفاته، وما اضطره لبيعِ المسكن هو فوزه

باللوتاري وهجرته إلى أمريكا، وبعد أنْ شرحَ له مهابٌ ظروفَ سعادةَ وأولادها، والمبلغ المتوفر حاليًا والذي يمثل ثلث ثَمن العقار، وأنَّ مهابًا المسئولُ عن سدادِ باقي المبلغ على أقساط، وافق الرجلُ مِن فوره، وأقسم ألا يأخذَ أيَّ سندٍ للدين على مهابٍ، قائلًا: لست وحدك يا مهابُ مَن تحمل قلبًا طيبًا وتسعى في إسعادِ النَّاسِ.

انتقلت سعادةُ وأولادها لبيتها وملكِها وهي لا تصدقُ، وتضع يديها على صدرِها، تقولُ لمهابٍ ولأولادها أشعرُ أنَّ قلبي سيتوقف مِن الفرحِ، فيقولُ مهابٌ ممازحًا لها: كيف يتوقفُ مِن السعادةِ وهي اسمُك، ولا بُدَّ أنْ يكون للإنسانِ من اسمِه نصيبٌ، فتنكبُّ على يديه تجذبها لتقبلها، وهو يبعدها ويقول: استغفرُ اللهَ! ماذا تفعلين يا أمّ مصطفى؟! فترد دينكم في رقبتي كبيرٌ لن أوفيّه ما حييتُ، وكانت كلّ يوم تتردد على بيتِ السيدةِ سامية تزورُها تقبّل يديها، وتدعو لها بحرقةٍ، وتقول أنتِ سببُ السعدِ والخير الذي نعيشُه أنا وأولادي، حتّى جاءت ذاتَ نهار فإذا بالسيدةِ سامية وَعِكة، والطبيبُ عندها يفحصُها، وما إن علمت ذلك حتّى صاحت وانخرطت في بكاءٍ ممزوجٍ بنحيبٍ، عندها ترك مهابٌ الطبيبَ وخرج مسرعًا ماذا جرى يا أمّ مصطفى؟! يسألها في استغرابٍ فاعتذرت عن فورة مشاعرها، وبررت ذلك بأنَّ السيدةَ ساميةَ هي سببُ النجاةِ وبابُ الفرج، وأنَّها السندُ في هذه الدنيا، ولولاها لما أكلنا طعامًا طيبًا، ولا لبسنا لباسًا حسنًا ولا قطنّا هذا البيتَ، ردّ عليها مهابٌ ليس كذلك يا سعادةُ، وإنَّما يوم انعتاقكم مِن الاستبداد وانفلاتكم من الجور وتحرركم مِن قبضة الظلمِ هو يومُ ميلادِ الفرجِ.

انكسارٌ

لم يعرف إبراهيمُ سوى الطريقةِ التي تربى عليها ليربي بها أبناءه على الرغم مِن التعليمِ الجامعي وخبرات الحياة والآفاق الجديدة التي يفتحها العلمُ، إلا أنّه لم يتعثر يومًا في طريق أبيه الذي لم يكن له أيُّ حظٍ مِن العلمِ، ولم يعرف للتربيةِ لغةً سوى الضربِ، ولم يقدّس في حياته حاشا المال حتّى عندما قرر أن يكمل ابنه إبراهيمُ تعليمَه كان بغرض إلحاقِه بكلية الزراعةِ ليضاعفَ إنتاجَ الأراضي بالطرقِ الحديثة فتكثر الأطيانُ، ويزيد المالُ وهو ما فعله إبراهيمُ حتّى وفاة أبيه، وبيعه للأطيان والأراضي وتقسيم الميراثِ والانتقال لتأسيس حياةٍ جديدةٍ في المدينةِ التي تخرّج فيها في الكلية، اشترى إبراهيمُ دكانَ بقالةٍ ليديرَه بجانبِ مشتل لم يرضَ صاحبُه أن يبيعه، وإنّما أوكل إلى إبراهيمَ إدارته مقابلَ نسبةٍ مِن المبيعاتِ، كان إبراهيمُ مثالًا للانضباطِ والترتيبِ والتركيزِ الشديدِ دونَ انحرافٍ أو تشتتٍ، سواءً في العملِ أو حياتِه الشخصيةِ، حتّى أنّ ذلك انعكس على ملامحِ وجهه التي ظهرت صلبةً قويةً مثله، تعكس عزمًا لا يلينُ وحزمًا وصرامةً تأبى معها الاستجابةَ للتغيير بإظهار ابتسامةٍ أو التعبير عن الفرحِ إلا بصعوبةٍ بالغةٍ.

كان يوقظُ أولادَه الستةَ فجرَ كلّ يوم ليبدأوا يومَهم بغض النظر إنْ كان لديهم أعمالٌ أو لا، وإنّما هو نظامٌ لتعزيز الانضباط والتنظيمِ، ولا علاقةَ له بمواسمِ الدراسةِ، أو أيامِ الإجازات، ولم يسلم منه حتّى الطفلين أصحاب الثلاث والخمس سنوات.

كان الأربعةُ الكبارُ تتراوحُ أعمارُهم بين الخمسة عشر والواحد والعشرين، وقد كانت كلّ ذريتِه مِن الذكورِ، وكأنّه نسق مع القدرِ ألا يكون مِن صُلبه إلا مَن يتحمّل قسوتَه وقوانينه الجائرةَ، كان الذكورُ الأربعةُ يتناوبون العملَ في دكانِ البقالةِ، وكان كلُّ اثنين يعملون ورديةً تمتد لعشرِ ساعاتٍ، ولا يعودُ أبوهم إلى البيتِ بعد انتهاءِ عملِ المشتلِ، وإنّما يرجعُ ليراقبَ العملَ في الدكان في جوٍّ مشبعٍ بالتوترِ، يبحثُ فيه الأبُ عن أدنى خطأٍ ليقوّمه بالركلاتِ المباشرة واللكمات والصفعاتِ، غير آبه بازدحامِ المحلِّ أو تأنيب النّاسِ، كان الذعرُ مِن ارتكاب أيّ خطأٍ في حضرةِ الأبِ يورثُ الأبناءَ انكسارًا وضعفًا في الثقة وشروخًا في النفس لا تداويها الأيامُ، ولم يمرّ الكثيرُ على

ضربه لابنِه الأكبر لإيقاعِه البيضة أثناء وضعِها في الكيسِ لدفعِها لأحدِ العملاءِ، لم يكن ضربًا بل كان انتقامًا، وكأنّه إعادةُ نمطِ سلوكِ أبيه مع أبناءه بغيرِ وعيٍ، فلم يكن كسرُ البيضةِ يستدعي مثل هذا العنفِ الذى ظهرت آثارُه في ملامحِ الابنِ، ألمٌ يحرقُ الروحَ والفؤادَ قبل أن يؤذيَ البدنَ، ولم يتوقف عن الضربِ إلا بتدخلِ العميلِ والإمساكِ بيده ليمنعَه مِن المزيد وهو ينهرُه، ويرقّقُ قلبَه، ويقول: كفى ما حصلَ مِن الأذى، وعامله كأنّه ابنك، فيرد إبراهيمُ هو بالفعل ابني، فتتحول مشاعرُ العميلِ مِن تعاطفٍ مع الابن إلى استياءٍ من الأبِ، ويقولُ لم أكن أتوقع هذا أبدًا، ولن أشتري من هذا المكانِ ثانيةً.

كبر الأبناءُ الستةُ محمّلين بطغيان أبيهم الذي أورثَهم خوفًا دائمًا و انكسارًا مستمرًا، ولم يذر حتّى في خلدِ أحدِهم يومًا التمردُ، أو حتّى الاعتراض في أدبٍ وكلّمًا سيطرت لحظاتُ اليأسِ والاستسلام وبدى الضعفُ والعجزُ دربًا وسبيلًا لا حيلةَ في تجاوزه، ولا نجاةَ منه يلتمسون الخلاصَ والتحررَ ولو في فضاءِ العقلِ بذكر الزواجِ والتحوّل الذي يستتبعه في سلوكِ الأبِ ليصبح أكثر احترامًا لهم وتفهّمًا حتّى لا يؤثر على سعادةِ الأسرةِ الجديدةِ، ويحرج أبناءه أمامَ زوجاتهم وحتى وإن لم يتحقق فسنجد عندَها مَن يواسي ويداوي ويساندُ فينبعث شعاعٌ مِن الأمل والتفاؤل يبددُ غيومَ اليأسِ، ويغمر الأفقَ بألوانِ السعادةِ والانتصارِ.

لم يسمح إبراهيمُ سوى للابن الثاني أشرف والثالث حمادة بالتعليمِ، فقد كان مثلَ أبيه يفكّرُ في العلمِ كوسيلةٍ لزيادةِ المالِ، فألحقَ أشرفَ بكليةِ الزراعة ليعملَ في المشتلِ الذي امتلكَه إبراهيمُ وأسسَه على مساحةٍ شاسعةٍ، ويلحقُ حمادةَ بكليةِ الحقوقِ ليكون بعدها المسئولُ عن التعاملِ مع الجهاتِ القانونيةِ والضريبيةِ، والمستشار القانوني عند إبرام الصفقات وتنفيذ الاستثمارات.

أغرى قربُ أشرفَ من أبيه أن يكسرَ جِدارَ الصمت، ويتجاوز حاجزَ الحياءِ والخجلِ، وبعدَ عمل المقدماتِ الطويلةِ، سأل أباه في قلقٍ وترقّبٍ: هل ترغبُ لي يا أبي في الزواجِ؟ وأعاهدك ألا يؤثر ذلك أبدًا على عملي في المشتلِ والمحلّ، وبالطبع إن لم تكن لك رغبةٌ أو ترى أنّ أوان ذلك لم يحِن فالأمرُ إليك على كلّ حالٍ.

كان أشرفُ قد بلغ السادسَ والعشرين من عمرِه، وكان يقضي قرابةَ الخمسة عشر ساعةً يوميةً في العملِ ما بين المشتلِ ومحلِّ البقالة الذي اتسع ليضم أربعةَ محلاتٍ بجواره تحت اسم مؤسسةِ أبناءِ الصعيد، وظنَّ أشرفُ أنَّ لديه مِن الرصيدِ عند أبيه أكثرَ مِن إخوته فلم يغير ارتباطه بعملِ المشتل مِن ورديته الثابتة في المحلِّ والتي لم تتغير حتَّى في أيام دراسته، وأنَّه أبدًا لم يطلب لنفسِه لا راحةً أو نزهةً أو حتَّى مالًا لشراء ملابسَ، كما كان يفعلُ أقرانُه في الكليةِ والتي قضى مدة الدراسة بها يرتدي طقمًا واحدًا يزيد عليه في أيامِ البرد معطفًا ورثه أبوه عن جده.

نادى إبراهيمُ ابنه أشرفَ بعد يومين مِن حديثهما ليخبره أنَّه خطبَ له ابنةَ العقيد مجدي جارهم، وأنَّه حدد معه منتصفَ الشهرِ لإتمام مراسمِ الخطوبةِ وتقديم الشبكةِ، أطلقت نبضات قلبُه دويَّ الطبول فاحمرَّ وجهُه من فورة الدم، وطفح البِشرُ والسرور عليه، وهو لا يعلم حتَّى اسم خطيبته ولم يرها قط، لم ترتبط تلك البهجةُ بقصة حبٍّ توجت بالزواج ولا الظفر بامرأةٍ بارعةِ الحسن اختارته وفضَّلته على الجميعِ، وإنَّما هي فرحةٌ بولادة ملجأ يسكنُ إليه فيوفر له الدَّعمَ العاطفي، وزوجةٌ تشاركه همومَه ويبثها شكواه، فيشعر أنَّه ليس وحيدًا وأنَّ هناك قلبًا يشعرُ به ويحملُ معه فيتبدد الهمُّ وتنقشعُ سحائبُ الحزنِ.

لم يمر سوى خمسةُ أشهرٍ على الخطوبة حتَّى يجتمع أشرفُ بزوجته مروةَ في الشقةِ التي جهّزها أبوه بالعمارةِ بجوار المشتلِ في نفسِ الطابقِ الذي يسكنُ فيه، وقد كان أبوه شديدَ الحرص والتقتير في النفقةِ على بيته وأولادِه لا لبخلٍ، وإنَّما يرى أنَّ كلَّ قرشٍ ينفق في غيرِ استثمارٍ أو شراء أصولٍ فهو خسارةٌ، مما جعله لا يفوّت عامًا بغير شراء عقار تجاري أو سكني، ولا يبيعُ إلا إذا كانت المكاسبُ مضاعفةً، ولا يبيع إلا ليستثمر في جديدٍ، فلم تكن التوسعةُ في النفقة على الأهل في قاموسه، وإنَّما كان يدلُّ مظهرُه وأولادُه كشحاذ تودُّ لو أن تعطيهم صدقةً شفقةً وإحسانًا.

حدد إبراهيمُ إجازة الزواجِ ثلاثةَ أيامٍ على أن يكونَ فجرُ اليوم الرابعِ بدايةَ عودةِ حركةِ الحياةِ إلى سيرتها الأولى، قضى أشرفُ ومروةُ الثلاثة أيام كلهم خارجَ البيت في المتنزهات والسينمات والمطاعم وهم في ثقةٍ تامة واطمئنان أن النقودَ

التي قُدمت لهم كهدية الزواج ستكفيهم وتزيدُ، لم يرَ إبراهيمُ ابنه سوى صباحِ يوم الزفافِ، وهو خارجٌ مصطحبًا زوجته للتنزه، وكان يعود في ساعاتٍ متأخرةٍ، الأمرُ الذى أقلق إبراهيمَ، وأشعره أنَّ تلك الزيجةَ لم تكن موفقةً، وكان الأولى أن يرتبطَ بإحدى بناتِ عمِّه، فهنَّ لا يعرفنَ للترفيه ولا المنتزهات طريقًا، ولا تخرج الواحدةُ منهن مِن بيتها إلا إلى قبرِها، عاد أشرفُ في اليومِ الثالث في الساعة الثانية صباحًا وهو اليومُ الأخيرُ في المُهلةِ التي حددها أبوه، عاد يتبختزُ ممسكًا بيد زوجته وما إن صعدا الدرجَ وقبل أن يفتح شقته بادر أبوه - الذي لم ينَم انتظارًا له - بفتح بابه وسأله كيف ستستيقظُ فجرًا وتذهبُ للعملِ ولم يبقَ على الفجرِ سوى ساعتين، ردَّ أشرفُ وهو يبتسمُ ظنًا منه أنَّ وجودَ زوجته بجواره يحميه أو يغير مِن ردّة فعل أبيه، قال يا أبتِ ما زلتُ حديثَ عهدٍ بعرسٍ فلو تأخرت ساعتين فقط، ولم يكمل أشرفُ كلامَه وإذا بالصفعاتِ واللكمات تتوالى على وجهه، وهو لا يفتحُ فمَه، ولا ينطقُ وقد أصاب مروة الفزعُ والذهولُ فلا تدرى ما جريمتهم، وصاحت بإبراهيمُ لماذا كلّ هذا؟ ما الذي جرى وماذا اقترفنا؟

فصرخَ فيها اصمتي ولا تفسدي عليّ ابني، ولا تدخلي بيتي سأوصلك إلى بيتِ أهلك، فهرعت تنزلُ على الدرجِ، وهي تقول: لا أريدُ من أحدٍ أن يوصلني، ولم يكن بيت أهلها ببعيدٍ، انتظرت مروةُ شهرًا ببيتِ أهلِها تأمل أنْ يأتي أشرفُ ليأخذَها بعد أن يعتذر أو يتواصل أبوه مع أهلِها الذين أخذتهم العزةُ وقرروا ألا يسعى أحدٌ منهم إلى الإصلاح ما لم يأتِ هذا الرجلُ المدعو إبراهيم معتذرًا، وهذا لم يحدث.

وكانت المفاجأةُ التي لم تغير مِن مجرى الأحداثِ شيئًا عندما اكتشفت مروةُ حملَها والذي لم يحتفِ به أهلُها ولم يفرح به أحدٌ سواها، فكان أبوها يرى أنَّ الطلاقَ مِن هذا الشاب الذليل مسألةُ وقتٍ، وأنَّ قرارَ الموافقة على هذه الزيجة كان أسوأ قرارٍ اتخذه في حياته، وأنَّ الطلاقَ هو السبيلُ الوحيدُ لإصلاحِه، وأنَّ الصوابَ في دفع المولود إليهم فور ولادته فيكفي أنَّه يحمل اسمهم.

اتصل العقيدُ مجدي بإبراهيمَ لإرخاء الستارِ على تلك المهزلةِ، والاتفاقِ على تفاصيلِ النهاية، ولكنّه لم ينجح في انتزاعِ حق ابنته باقتطاع مبلغٍ شهري كريمٍ

كنفقةٍ مستحقةٍ لها ولمَن في بطنها من دخل أشرف بعد أن أثبت إبراهيمُ أنَّ أشرفَ ليس له دخلٌ ثابتٌ سوى مبلغٍ زهيد مقابل عمله في مشتل أبيه، وبالطبع ليس ثمة عقارٌ مسجلٌ باسمه، ولا حتّى شقة الزوجية وحكمت المحكمةُ لمروةَ بجزء من هذا المبلغ الزهيد مِن راتبِ أشرف، فاجتمع لها فراقُ الحبيب وقلةُ المتاعِ، فبرغم مدة الزواج التي لم تتعد الثلاثةَ أيام إلا أنَّ مروةَ انكسر قلبُها بعد تعلقه بأشرفَ الذي كان يبيتُ كلَّ يومٍ فوق دموعه التي تنعي حالَه وترثي صورةَ المستقبلِ الذي عاد مظلمًا كئيبًا، أحبّت مروةُ فيه ضعفَه وانكسارَه وقلةَ حيلته مع أبيه، ووعدته أنّها ستكون له الملجأ الذي تسكنُ فيه الروحُ وتذوي الهموم وتتلاشى الأحزان كدخانٍ بددته النسماتُ الهادئةُ وتعاهدا ألا تنهار جدرانُ الوفاءِ وحصونُ الأمانِ التي تحمي هذا الحبَّ وترعاه وتظلّ صامدةً في وجه العواصفِ والمِحنِ.

لم يتخيلا أبدًا هذا السقوطَ السريعَ، والانهيارَ المفاجئَ فلم يستطع أيٌّ منهما التواصل مع الآخرِ حتّى عبر الهاتف فقد قضى إبراهيم بمنع ابنه من ذلك، وما على ولده إلا الإذعان.

لم يمضِ سوى ثلاثةُ أشهرٍ حتّى يأتى إبراهيمُ بابنة أخيه زوجةً إلى ابنه أشرف دونما أيّ مراسمِ للزفاف أو قرار من أشرف أو اختيار، مرت بعدها سنواتُ خمسٌ حتّى يصابَ إبراهيمُ بجلطةٍ في الدماغِ، هذا الدماغُ الصلبُ كالجدارِ الذي لم يعرف سوى العنادِ وتحجر الرأي فلا يرى للآخرين رأيًا ولا ينفذ له منهم وجهة نظر.

مات إبراهيمُ وقد ترك إرثًا كبيرًا مِن المال والضِّياع والهوان.

لم يعرف الأبناءُ كيف يتمتعون بهذا المالِ، فلم يتعرفوا على لمعانِ الثروةِ وبريق الفخامة ونعومة الملبسِ، فلم تحوِ الحياةُ التي عاشوها إلا ثيابًا تواري الجسدَ، وطعامًا يقيم الأود، وكدًا مستمرًا يصلُ الليلَ بالنهار، فلم يكن أحدٌ منهم يُحسن الترفيه عن نفسه أو يعلم كيف يستمتع بالحياة، أو يعزز سعادته الشخصية، فلم يتعلموا إلا العملَ وكنز المال وشراء الضياع.

لم يتغير حالهم بعد أبيهم، فلم يستطيعوا استعادةَ الثقةِ بأنفسهم، والتي أفقدهم أبوهم إيّاها في رحلةِ الحياة، لم يتمكن حمادةُ من الالتحاق بسلك القضاءِ رغم

تفوقه أيامِ الدراسة وترتيبه ضمن العشرة الأوائل كلّ عامٍ، فقد بدى جليًا في المقابلة الشخصية ضعفُ الثقةِ وتقدير الذات والتردد في اتخاذ القرار بالرغم من موت أبيه والتحرر مِن قبضتِه.

لم يحاول أشرفُ استعادةَ مروةَ وابنته صاحبة الأربع سنوات، وكأنّه ما زال يهابُ أباه بعد موته، ويخشى أن تصيبه عواقبُ مخالفتِه.

رحل إبراهيمُ عن الدنيا ولم يرحل أثرُه، جمع الأموالَ وشيّد الأبنيةَ، ولم يبنِ في أنفسهم شخصيةً قويةً، ولم يبذر في أرضِ تلك النفوسِ إرادةً وعزةً واستقلالًا، فعاشوا حياتهم بعده لا يعرفون سوى كنزِ المالِ والانكسار.

عندما ينكشف الغطاء

موضعُ التقدير ومحلُّ الثقة مِن الجميع إمامُ المسجد الذي يتغنى بالقرآنِ جيئةً وذهابًا، فالكلُّ يحبُّه ويلتمسُ دعائه ولا يناديه النَّاس إلا بالشيخِ صالح.

كان مِن أسرةٍ فقيرةٍ، يعملُ أبوه حارسَ بناية، وله أخوةٌ تسعة كلهم مِن الذكور، ورغم رقّة حاله فلم يكن يجالس إلا أغنياءَ البلدِ وأصحاب النفوذِ، وكانوا يقدّمونه ويغشونه مجالسهم لصلاحه الظاهرِ وسيرته الطيبة في النَّاسِ، وكان صالحٌ يختارُ أهدافَه بعنايةٍ، ويخططُ للاستحواذِ على الثقةِ المطلقةِ بعد توثيقِ عراها بالمواقفِ التي تمّ كتابتُها وإخراجُها باقتدارٍ، فقد كان بارعًا في إظهارِ التعاطفِ والإخلاصِ والحديث دومًا عن الشهامةِ والنجدة، وحثّ النَّاس بحرارةٍ وتقديم الوقتِ والجهد لكل مَن يحتاجه، خاصةً أصحاب المال والجاه، وكان ينظرُ ويدرس ويتفحص حتّى يختار عائلةً يرتبط بها، ويقترب منها ويقوي علائق المحبةِ والإيثار، والتي لا تستمر أكثر من عامين متذرعًا بالانشغالِ، ثمّ يبحثُ عن هدفٍ جديدٍ، ولا تكون الخطة أبدًا نفسها وإنّما لكل قصةِ السيناريو الأصلي والسيناريوهات البديلة وفقًا لتغير المواقف والظروف والأحوال، فهو يدرسُ كلَّ حالةٍ بعنايةٍ ليحددَ المدخلَ المناسبَ، فمَن كان غنيًا وله أخوةٌ يحقدون عليه لغناه يدخلُ له من مدخلِ الفرح بغناه والغبطةِ بما عنده، وأنّه لا يفتأ يقيمُ الليالي الطوال يدعو له بالبركةِ والنماءِ، وأنّه يتفاخرُ بين النَّاس أنّه يعرفُه ويجالسُه حتّى يقول ذلك الغني في نفسه لأنت والله أخي حقًا مِن دون أخواني، أولى بهم أن يحبوا لي الخيرَ من الرجل الغريبِ، ثمّ يتبع صالح ذلك بهدايا قيمة قد يستدين ثمنها أو يشتريها بأجل ليوصل رسالة أنّه لا يهمّه المالَ، وهو يعلمُ جيدًا أنّه سيسترد ذلك أضعافًا مضاعفةً، وكان مِن تدبيره أن يختار المحالّ الكبيرةَ والتجاراتِ التي لا تعملُ بنظامِ إلكتروني، فكلُّ شيءٍ مشفّرٌ ومسجلٌ عليه الثمن، ومدرجٌ بقاعدة بياناتٍ، وتلك المحال لا يمكن العبث بها إلا بصعوبةٍ، وليست بيئةً آمنةً لتنفيذ خطته، وما إن يمسك بتلابيب الثقةِ ويأمنه النَّاس على أموالهم حتّى يبدأ التنفيذَ بأن يعرض على صاحبِ التجارة إراحةَ نفسه، فقد ظهرت ملامح الإرهاق على وجهه، وأنّه مشفقٌ عليه، ومستعدٌ لأجل راحته أن يجلسَ مكانه على

الخزانة يحصّلُ النقدَ من العملاء ويسدد للموردين ويجري عمليات التسجيل والإقفال اليومية بدلًا عنه، حتّى يمنح جسده الفرصةَ ليرتاح، وهذا طاعةٌ لأمر رسول الله ﷺ «إن لبدنك عليك حق» وبالطبع يقبلُ التاجرُ في امتنان بالغٍ لهذا الصنيع، فمن لا يريد أن يرتاح وهو مطمئنٌ غاية الطمأنينة أنّ عمله يسير وكأنّه على رأسه، بل ستحل البركة بوجود الشيخ إمام المسجد، حافظ القرآن، وكأنّما سمّاه أبوه صالحًا ليسهّل له عمله، فتكتمل باسمه الصورة في أذهان النّاس عن الإمام والذي يسمى صالحًا، ويسهل الإيقاع والخديعة.

وما إن يجلس عند الخزانة حتّى يبدأ السرقةَ بذكاءٍ والتسجيل في الدفاترِ، فلا يمكن لأحدٍ أن يكشفَ اختلاسه وكيف لأحدٍ أن يشكّ فيه أو يراجع وراءه، وهو الذي يجمع أبناء الضحية في محل أبيهم يُحفّظهم القرآن ويحضهم على تمامِ حفظِه، وعلى برّ أبويهم، ويراجع لهم الآياتِ مما يحفظُه وقد كان متينَ الحفظ.

ولا يزيدُ تقربه مِن أحدِ أصحابِ المكانة والمال أكثر مِن عامين، ثمّ يبحث عن ضحيةٍ جديدةٍ، ولم يدرِ أحدٌ لماذا عامين تحديدًا، فهل كان ملولًا يريد أن يغير الوجوه أم أنّه يحب تطوير الخطط وتغيير الاستراتيجيات انطلاقًا من مبادئ تطوير الذات؟!

ظلّ على تلك الحالِ ثماني سنواتٍ حصّل فيها مبالغًا كانت كافيةً لشراءِ قطعةِ أرضٍ في مكان مميز وسيارة، وذلك دون أن يشعرَ أحدٌ أو يشكّ في الأمرِ، بل يبارك له كلّ مَن يراه بالسيارةِ ويدعو له بالسلامةِ والحفظ، لم يتساءل أحدٌ من أين له سيارةٌ كهذه وراتبُ الأوقافِ ضعيفٌ، وأبوه مازال غفيرًا يتنقلُ بين البنايات قيد الإنشاء، وإخوانه يعملون بالسوقِ في أعمال مختلفةٍ بأجرٍ يومي، ولكن هذه حال النّاس إذا رأوا مَن ظاهرُه الصلاحُ عندها تتحكم المشاعرُ في الحكمِ ويتنحى المنطقُ.

لم تتغير قاعدةُ العامين إلا بعدما افتتح علاء فرعًا جديدًا لدكانه قريبًا من المسجد الذي يصلي به صالحٌ، ويظهر أنّ سمت علاء الطيب ووسامته أغرى صالحًا أن يتقربَ منه سيما بعد علمه أن لديه أختًا تدرس بالجامعة هي آيةٌ في الجمال، وكان صالح وقتها في بداية عقده الرابع، ورأى في خطته هذه المرة أن تشملَ الأسرةَ كلّها

فينفذ من علاء إلى أبيه وأمّه حتّى يحظى بقلبِ أخته، وفي تلك الأثناء تسير خطةُ الاختلاس، ولكن من الفرعين حتّى يتمكن مِن تجهيزِ منزلِ الزوجيةِ على الأرض التي اشتراها من رصيد السرقةِ السابق، وحتى لو أضطر أن يكتب البيت باسمها مقابل أن يقبلوا بتزويجه.

أحب علاءُ الشيخَ صالح أشد الحب فقد رأى فيه إخلاصًا وشهامةً وخفة ظلٍّ بالإضافة إلى رصيد من الإيمان الراسخِ والذي يظهر في ردود أفعاله تجاه المواقف وعذبِ حديثه الذي لا يخلو من عظةٍ، والمصحف الذي يبرز من جيبه العلوي مبررًا وضعه في هذا الموضع ليكون قريبًا من قلبه حتّى لا تخترق الدنيا قلبَه فتلوثه.

كان يمرُّ باستمرارٍ على علاء في الفرع الجديد واشتهر علاء بسرعة في المنطقة بسبب تواجد الشيخ صالح عنده وسلام المارة عليه فيقدم لهم علاءُ على أنّه الصديقُ والحبيبُ وأنّه يقدم أفضلَ المنتجات بأرخص الأسعار فيتهلل وجه علاء ممتنًا للشيخ شاكرًا له، وكان علاء يأتي كلّ يوم ليصلي العصرَ بمسجد الشيخ صالح، ويذهب يتسلم الوردية بالمحل ويمكثُ حتّى المساء، ولم يكتفِ صالحٌ بالزيارة اليومية وصنع الشاي بنفسه وجلب بعض السوداني، وإنّما كان يجلبُ معه أخاه الصغير ويأمره أن يكنس وينظّف المحلَّ ويرص البضائع الجديدةَ، ويقسم على علاءٍ أن يتركه ولا يساعده في شيءٍ أو حتّى يمنحه مقابلًا بسيطًا ولو عشرين جنيهًا؛ مبررًا ذلك أنّ هذا أفضل من بقاءه في الشارع يلهو ويجلبُ المشاكلَ لنفسه ولأهلِه.

لم يمضِ وقتٌ طويل حتّى طلب علاءُ من الشيخ صالح ترشيحَ شابٍ أمينٍ يعاونه في وردية المساءِ، فقد ازدحمت الأقدامُ على المحلِّ، وكذلك ليتركه مكانه إذا اضطر للذهاب للفرعِ الرئيسي والذي أهملَه منذُ أن فتح الفرعَ الجديدَ، وكان هذا الطلبُ بمثابة إطلاق لشارة البَدءِ بتنفيذ خطة صالح، والذي لم يكن يتوقعُ أن تبدأ بهذه السرعة، فردّ صالحٌ وهو يعقّد الأيمان واللهِ لا يعاونُك أحدٌ إلا أنا، فليس عندي عملٌ إلا المسجد، وقد يكون التزامي بوردية عمل كلّ يوم خير مُعين لي على مراجعةِ القرآنِ وهو في ميزان حسناتك، وإن أردتَ زيادةً في الأجر نجمع شبان المحلات المجاورة عشر دقائق كلّ ليلة يأخذوا عشر آياتٍ وذلك عند هدأة الأقدام فنجمع

ثوابَ الآخرة مع أجرِ الدنيا، ووالله لإن وافقتَ لا آخذ منك أيَّ أجرٍ ويكفيني أجر الآخرة.

أذهل ردُّه علاءً، وطفق يحدّثُ نفسَه مِن أين له هذه الهمةُ وهذا الصلاحُ؟! فهو ملاكٌ في مسلاخ إنسان.

خرج صالحٌ بعد صلاة عصر اليوم التالي وهو يقولُ لعلاء في حماس هيا أرني دفترَ الموردين والمبالغ المراد سدادها الليلة، وانطلق إلى دكانك الأول، فهو الأصلُ وغيره الفرع، وإنْ علا لا تهمله فتذهب السمعةُ الحسنةُ التي تراكمت عبر السنين، ولا أراك الليلة أبدًا، اعطني المفاتيح فأنا سأغلق المحل في المساءِ وعندما نصلي معًا صلاة العصرِ في الغد أعطيكها تعجبْ علاءٌ بعد ما فتح دكانه في اليوم التالي عندما رأى دفتر عنوانه «مبيعات وردية المساء» وقد قسّم صفحاته وفقًا لأيام الأسبوع إلى قسمين المتحصلات والمدفوعات وفي أسفل الصفحةِ الصافي، ولما سأل صالحًا عن ذلك الدفتر قال: هي أمانة وللشيطان على ابن آدم مسالكُ، ولا بدّ للإنسانِ أن يحرصَ على مالِ غيره أكثر مِن حرصِه على مالِه.

وثق علاءٌ كلّ الثقةِ في هذا الشيخ وسلم له إدارة المحل بعدما أقسم عليه أن يتقاضى راتبًا يليق بأمانته، وهو ما قبله صالح بعد ورع باهتٍ وزهد متكلّف.

على الرغم مِن الشهورِ القليلةِ التي مرت على افتتاح الفرع الجديد إلا أن مبيعاته فاقت بكثير مبيعات المحلِّ الأصلي ذو السمعة والتاريخ الطويل، مما ساعد صالحًا في الانتهاء السريع من بناء البيت وتشطيبه بأفضلِ الخاماتِ بما يسرقُه مِن مالٍ، وكان مِن ذكائه أنّه لا يترك أحدًا مِن الموردين يشتكي أنَّ له متأخراتٍ أو أنّه مرّ يومًا على المحلِّ فلم يحصّل وإنّما كان حجمُ البضائع رهيبًا، فما إن يمتلئ المحلُّ حتّى ينفد، ومع ذلك المكاسبُ زهيدةٌ جدًا، وهذا ما لم يستطع علاءٌ تفسيره أبدًا وأقصى ما كان يمكن أن يفكّر فيه هو سرقةُ أحدٍ مِن العمالِ، فكان يوصي صالحًا بالحذر، فيقول له: لا تقلق فأنا أمرُّ عليهم باستمرارٍ، ولا أتركُ مبالغًا كبيرةً بالمحلِّ فقط ما يفي بسداد المبالغ اليومية، وقد اضطر علاء إلى تعيين أربعةِ عمالٍ بواقع اثنين في كلّ وردية، والإدارة للشيخ صالح الذي يحاسبُ الموردين ويدفعُ رواتبَ العمال، وما يزيد

بعد راتبه يدفعه إلى علاء والذي زهد في هذا المحل لقلةِ إيراده فلم يعد يزوره إلا على فتراتٍ متباعدةٍ صارفًا كلّ اهتمامِه وتركيزه على المحل الرئيسي، والذي لم يخلُ من زيارات صالح ليدرسَ أيّ الأوقاتِ أكثر ازدحامًا، ويقدّر المبالغَ اليومية، وكان يقولُ لعلاءٍ لقد تعودتُ على هذا الفرعِ وتعرّفت على الأسعارِ والأماكنِ فإن شئت ذهبتَ إن أردتَ الراحةَ أو كان عندك أمرٌ تقضيه، فكان علاء يفرحُ ويغادرُ بامتنان، إمّا للراحةِ أو لقضاءِ بعض المشاويرِ، وظلّ هذا الأمر مستمرًا قرابة ثلاث سنين وقبلهم ثلاثة منذُ فُتح الفرعُ الجديدُ، وقد كان يوم مولد النبي ﷺ والنّاس يشترون الحلوى والعسلَ الأسودَ والدقيقَ والسمنَ لعمل عصيدة المولدِ، وكان المحلُّ ممتلئًا بالناسِ منذُ الصباحِ، وما إن هدأت الأقدامُ حتّى جلس علاءُ يرتّب النقدَ ويجمعُه في كيس سوداء بعد عدّه حتّى يودعه في حسابِ التجار في البنكِ في صباح اليوم التالي، وترك فقط خمسمائة جنيه في درج النقود وما هي إلا دقائق ويدخل صالح مبتسمًا وهو يقول: سامحني لم أستطع المجيء طوال اليوم من ضغط العملِ بالمحلّ الثاني، ولم أتمكّن من الحضور إلا الآن، هيا انطلق راشدًا، أعلمُ إرهاقَ العمل في أيامِ المواسمِ.

Telegram:@mbooks90

خرج علاءُ يحمل كيسَ النقود، وقبل أن يستقلَ السيارةَ تذكّر طلباتِ زوجتِه فعاد للمحل يأخذ الخمسمائة جنيه التي تركها، والعمّ شفيق خفيرُ البناية المواجهة للمحلّ يمازحه بعد أن فتح بابَ السيارة ثمّ أغلقه وعاد للمحلّ يقول له بالطبع نسيت شيئًا كيف تخون الذاكرةُ عقولَ الشبابِ أمثالكم، وماذا عساها أن تفعل بنا معاشرَ الشيوخ! وقال لابنه صاحب الخمسة عشر خريفًا والذي كان يجلسُ على الرصيف أمامَ الدكان: ساعد عمّك علاء واحمل معه ما يريد إلى سيارتِه.

رد علاء مبتسمًا أن ما نسيته لا يحتاج لمَن يحملُه، معي لأني نسيتُ النقودَ، فضحكا وقال بارك الله لك في مالك.

دخل علاءُ المحلّ وقال لصالح لقد نسيت أن أخذ ما اشتري به... فتح الدرج فلم يكمل كلامَه عندما وجده فارغًا، وسأل صالحًا في دهشةٍ لقد تركت هنا خمسمائة جنيه لم يمضِ على ذلك شيءٌ، ردّ صالحٌ بمنتهى الثقةِ والثباتِ كنت أشكّ في فتحي

ابن عم شفيق أنّه لص والآن قد تأكدت.

استنكر علاءٌ كلامَ صالحٍ، وقال كيف ذلك وهو حتّى لم يدخل المحلّ، فأنا مشيتُ للسيارة وعدتُ وهو جالسٌ على الرصيف لم يبرحه، فقاطع صالحٌ لا تقلق سأستخرجهم منه الآن، وخرج مِن المحلّ يصيح بالشاب على الرصيفِ، ويقول: أخرج ما سرقت من مالٍ، ما إن سمع العمُّ شفيق ذلك حتّى عبر الشارعَ كالمجنونِ يحملُ في يده قطعةً مِن الطوبِ الأحمر المرصوصِ أمامَ البناية لينزلَ بها على رأسِ ابنه فتحي فينفجر الدم دون أن يكترث شفيق أو تأخذه بابنه أيّ رحمة فينهال بالضرب على كلّ جزء من جسده النحيل وهو يصرخ بهستريا لعنة الله عليك، كيف تسرق وأنا لم أطعمكم يومًا حرامًا! كيف تسرق ونحن نجوب بلاد الله نطلب الرزق الحلال! أهكذا ربيتك؟ أنت لستَ مِن صلبي أنت ابن حرامٍ.

كل هذا وعلاء يجذبُه ويبعدُه عنه بمنتهى قوته ولا يدري ما هذا الغضبُ الذي اكتنفه وأنّى له بهذه القوة في هذا السنّ حتّى أن علاء لم يستطع إبعادَه إلا بصعوبة بالغة بعد أن اجتمع النّاس على صوتِ الصياح ونحيبِ الابن وصراخه، وهو يقسمُ أنّه لم يفعل، وشفيق يمزّق ملابسَه ليستخرجَ المالَ، حتّى تقطّع بنطالُه وقميضُه، والنّاس ينظرون ويقولون لشفيق لا تظلمه فليس في ملابسِه ولا جيوبه ولم يعد موضع سليم يخبئ فيه شيئًا، اتركه فقد عرّيته تمامًا، كلّ هذا وعلاء يعتصره الألمُ وهو موقنٌ أن فتحي برئ، وأنّه لم يدخل المحلّ أصلًا، وينظر إلى صالحٍ بارتياب، وهو يقولُ لمَن يحاولُ استنقاذ الولدِ مِن أبيه دعوه يُربّيه دعوه يأخذ عقابَه، كيف يسرقُ المرءُ جيرانَه ومَن استأمنوه على أموالِهم، ظلّ يقولُ ذلك حتّى صاحَ به أحدُ النّاس ألم يكفك دمُه الذي يسيلُ وثيابه الممزقة؟ لقد نزع اللهُ الرحمةَ مِن قلبك حتّى وإن سرق فإنّه صغيرٌ ولم يفت الأوان على الإصلاحِ.

لم ينتهِ هذا الموقفُ إلا بعد أن قال علاءٌ هيا نسرع نخيط جرحَ ابنك في أقرب مشفى، اركب معي وكفاك ما فعلت، انطلقوا إلى المشفى العام، وقام طبيب الاستقبال بتجفيف الدم وتنظيف الجرح وخياطته، وشفيقٌ يبكي وينوحُ، لماذا يا بني تفعل بنا هكذا؟ وعلاء ينهره، ابنك لم يفعل شيئًا.

ولا أظنُّ إلا أنّي أخرجتُ هذا المبلغَ لأحدِ الموردين ونسيتُ، قاتلَ اللهُ صالحًا هو السببُ في كلّ ذلك.

بعدما اشترى علاء العلاجَ وبعضَ الفواكه واللحمَ اعتذارًا عمّا تسبب في حدوثه، رجع إلى المحل وقد تغير وجهُه، والحيرةُ والشكُ يملآن قلبَه، يسألُ الشيخ صالح عن موقفه الغريبِ وتأييده لضربِ الولد مع تأكيد علاء أنّه لم يرَه دخلَ المحلَّ، فهو لم يمشِ إلا خطواتٍ للسيارة وعاد حتّى أنَّ الولد إن دخل المحل لا يتمكن من الوصول لدرج النقود وأخذها بهذه السرعة، فيرد صالحٌ أنّك تحمل طيبة تغرى السفهاء أمثال هذا الفتى الضال، وأنا أعرف جيدًا هذا النوعَ من النّاس.

قام علاءٌ ليغلق المحلَّ قبل موعده المعتاد ويعود ليحكي لأبيه هذا الموقف، فيرد الأبُ بكل ثقة لم يسرق سوى هذا الذي يسمّى الشيخ صالح، فتردُّ الأم اتقِ اللهَ، كيف تصم هذا الشاب الصالح بهذه الوصمة؟ وهو الذى لا يبرحُ يردد القرآنَ في كلّ أحواله، ويمرُّ عليَ بين الفينة والأخرى يحملُ الخضراواتِ الطازجةَ، ويقول هذه هديةٌ لأمّي بعد أمّي، وكلّمًا اتصل اعتذرَ عن تقصيره في أدبٍ جمٍ، وأنا لم أطلب منه شيئًا، وليس عليه أيُّ التزام نحوي إلا الإخلاص الذي يمتلك منه الرصيدَ الهائلَ، ولم ينادني يومًا إلا بقول أمّي، وطفقت الأمُّ تدافع وتعددُ محاسنَ صالحٍ مما يظهر أنَّ خطته نجحت في استمالة الأمّ، ولكن عندما سألها علاءٌ وما تبريرك لاختفاء النقود ترد الأمُّ بثقة غريبة بالتأكيد أنك عددتها ضمن مستحقاتِ التجار ووضعتها في الكيس السوداء وأنت لا تدري.

أوشك علاء أن يجنَّ، ولم تغمض عيناه طوال الليل، ولم تهدأ نفسه وهو يحدثها ويلومها كلّ الشواهد تصرخ أن الشيخ صالح لصٌ، ومخادعٌ ولكن كيف؟! وسمعته الحسنةُ وصيته الطيبُ وإجادته للقرآن، وكيف يكون لصًا ويستره اللهُ كلّ تلك السنين، ولكن في الواقعِ كانت الشواهد كثيرةً لكنك عميت عن رؤيتها، الفرع الجديد ومبيعاته الرهيبة ومكاسبه الضئيلة ورفض صالح لأناسٍ للعملِ هناك لأنّهم من طرفي، ويقول لا تشغل بالك إنّي سأنتخبُ لك أفضلَ العناصر ويأتي بإخوانه أو أقاربه ليسهل إدارتهم ويكونون عليه سترًا وغطاءً، بدأ علاءٌ ينحي الهالةَ التي رسمها

النّاس حولَ هذا الشخصِ، وينظر لكلّ المواقف بعقلِه لا بقلبِه، حتّى أنّه لم ينتظر إلى الصباح وأخذ سيارته وانطلق يصلي الفجرَ وراءَ الشيخ صالح، والذي لم يستطع أن يواري دهشته لما رأى علاء في مسجدِه البعيد عن بيت علاء حتّى يقول له بعد الصلاة اركب معي عندي ما أسألك قبل الذهاب فيركب صالحٌ ويبدأ علاء حديثة دونما تحسينٍ للكلام أو انتقاءٍ للألفاظ، فقد كان قلبه يدمي لهذا الشاب الذي تهشّم رأسه سدى، والأب المكلوم الذي كاد يموت كمدًا من فعل لم يقترفه ابنه.

ثم سأله مباشرة: صالحٌ أنت من أخذ النقود، وأسألك باللهِ ألا تكذب فعندي مِن الغضب ما يكفي أن يحرقك.

رد صالح: أستأذنُك لو نبتعدُ عن المسجدِ أو حتّى نقترب مِن الشاطئ حتّى نتكلمَ براحتنا.

كرر علاءٌ سؤاله، وهو يديرُ محركَ السيارة، ولكن هذه المرة بصوت غاضبٍ نافد الصبر.

أنت الذي أخذتَ النقودَ ولعلّ حماقتَك لم تمهلك حتّى تبيعَ وتسرقَ مِن المبيعاتِ، وما إن انصرفتُ من المحلّ حتّى وضعتَ المالَ في جيبك، فأنا لا أريدُ منك الإقرارَ، ولكن سؤالي لك كم مِن المال أخذت طوال تلك السنوات؟ انفجر صالحٌ باكيًا وهو يتلعثمُ في كلامه ويرتعش، وعضلاتُ الفكّ تتحركُ بتشنج، وهو يقول اعذرني، أنا لست في وعي إن بي مسًّا من الجن، فأنا مسلوب الإرادة فتناول علاء دفترًا به وصولات أمانة من تابلوه السيارة، وقال توقيعك على هذا سيخرج منك الجنّ ويعيد لك الوعيَ، وارتفع صوت علاء مهددًا سأمحو اسمك من سجلات الأئمة في الأوقاف وأفضحُك في كلّ مكانٍ، تناول صالح الدفتر والقلم وهو يستجدى علاء اكتب مبلغًا لا يجوزُ لك أن ترغمني التوقيع على بياض هذا مخالف للشرع فينهره علاء أما زلت تقولُ شرعٌ، وكيف لحاملِ القرآن أن يسكن بداخله الجنُّ؟ ألم يسعفك ذكاؤك هذه المرة لاختراع عذر تكذب به على الله وتخدع به النّاسَ، قتلك اللهُ لم يغمض جفني ولم تغب صورة وجه فتحي الملطخ بالدم عن بالي.

ثم صاح به انزل مِن السيارةِ وأمامَك سبعةُ أيامٍ لإحضار مائة ألف جنيه، وأظنّه

أقلّ بكثير مما سرقتَ، وإن لم تفعل أقدّم هذا الوصلَ لرفع دعوة قضائية.

في نفسِ اليوم وقبيل صلاةِ الظهرِ، وقد أيقنَ صالحٌ بعدم وجود علاء ببيته، فذهب ليقابلَ أمّه يتسولُ حمايتَها ويستدرُ عطفها، ويبكي بين يديها ويستجدي غريزة الأمومةِ لديها، وأنّها أمّه، وأنّه لن يهون عليها، وأنّ الشيطانَ نزغ بينه وبين علاء حتّى أغراه أن يرغمه ليوقّع على وصلِ أمانةٍ على بياضٍ، وقد يغريه الشيطانُ أن يودعه السجنَ بهذا الإيصالِ دون رحمةٍ، وطلبَ منها أن تمهلَه حتّى شهر رمضانَ حينما يأتي إخوان أمه من ليبيا وهم أغنياء، وسوف يسددون عنه كلّ جنيه، طمأنته أمُّ علاء ووعدته ألا يحدثَ أيُّ مكروه.

امتثلَ علاءٌ لكلام أمّه وأنفذ وعدها محاولًا إقناعها أنّه لصّ، ولكن بغير جدوى فقد تأثرت ببكائه، ورقّت لحاله ولكنه أخبرها أنّه لن يصبرَ عليه يومًا واحدًا بعد انتهاء عيد الفطر.

وفي اليوم الأوّلِ من رمضانَ وقبلَ الإفطار بدقائقَ وإذا بجرسِ البيت يدقُّ وعندما فتح الابنُ الأصغرُ لعلاء وجد أمامَه الشيخَ صالح، يقول له نادِ جدتك يا حبيبي فتنظر له أمّ علاء من شرفة الدور الثاني فينهال عليها بالسلاماتِ والتبريكاتِ بحلولِ الشهرِ، والدعوات ويقول لها: هذه عشرةُ آلاف جنيه، وأسألك بالذي قامت به السماوات والأرض أن تعطيني الإيصال، وأنا أقسمُ لك أني أسدد، ولقد عاهدت اللهَ وعاهدتكم، أسالكم بهذا الشهر الفضيلِ، ووالله لم يأتِ أخوالي من ليبيا حتّى الآن، لم تطل أم علاء في الحديث فالعائلة كلها عندهم في هذا اليوم لأنّ زوجها كبيرُ العائلة، ويفطرون في اليوم الأوّلِ من كلّ رمضان معهم في بيتهم، وهذا ما يعرفُه صالحٌ جيدًا وقد أحسنَ اختيار اليومِ والساعةِ.

نادت فاطمةُ على ابنها علاء، وقالت: اعط صالحًا الإيصال فقال: مستحيلٌ يا أمّي، ردت وهي تتفادى الانفعالَ ورفع الصوت أو تعصي كلامَ أمّك وتثير الاضطرابَ؟ والعائلةُ عندنا، وأنا متأكدةٌ أن هذا الشاب سيسدد، لا أعلمُ مِن أين لك هذه القسوةُ والرغبةُ في الانتقام! لم يخلص علاء من الحديث مع أمّه إلا أن أرسل الإيصالَ مع ابنه الصغير وسلّمه لصالح والذي اختفى لمدة شهرين فذهب علاء إلي بيته في

إشارة أنّي لن أتركك، وأخذه في سيارته وانطلقا إلى الشاطئ، وسأله بتهكم أين باقي المال يا شيخ؟! ردّ صالحٌ أقسمت أنّي أسدد، كنت أنوي أن أكمل تشطيب المنزل وأبيعه لكن لم أتمكن، وأخوالي أجّلوا مجيئهم إلى الصيفِ، فإذا أردتَ خذ سيارتي فهي كلّ ما أملك، فالأرض والبيت باسم أمّي، قال سأفعل، السيارة ملكي من الآن ولكن أجب ولو لمرةٍ واحدةٍ في حياتك بصدقٍ، كيف لإمام مسجدٍ وحاملٍ للقرآن أن يفعل كلّ هذا، وكيف لم ينكشف سترُ الله عنك كلّ هذه السنواتِ؟!

قال سأحكي لك بمنتهى الصدقِ حتّى وإنْ فضحتني في الدنيا كلها فأنا أعضُّ أصابع الندم في كلّ يوم وأدعو الله أن يقبلَ توبتي.

اسمع يا علاءُ أنا لم أرضَ في يوم أبدًا عن نفسي ولا شكلي ولا أسرتي ولا عائلتي ولا بيتي ولا جيراني وكنتُ أشعرُ دومًا أني أستحق أكثرَ مما أنا عليه، كنتُ أتألم عندما يأتي لنا أبي بنصف كيلو من اللحم كلّ جمعة وتقسّمه أمّي إلى إحدى عشر قطعة لنأكل أنا وإخواني وأبي، ولا تتذوق هي منها أيّ شيء، كنتُ أتألمُ عند ذهابي معها للمشفى العام، وهي تشتكي مِن هبوطٍ وهزالٍ، فيكون التشخيص سوءَ تغذيةٍ ونقص فيتامنيات وأنيميا، ونأخذُ المتوافرَ مِن الأدوية بالمشفى مجانًا، ولا نستطيع أن نشتري الباقي من الصيدلية، أتألمُ لمعاملةِ النّاس لأبي وهو يعملُ في أحقر الأعمالِ، وإخواني الذين يكسبون كلّ يوم ما يقيمون به أودهم كنتُ دومًا أشعرُ أنّ الدنيا ظالمةٌ، وتغدق العطاءَ على مَن لا يستحقُ وتمنعُ وتقسو على الضعيفِ، وتزيدُ مِن محنته، ولم أجد ميدانًا أتفوقُ فيه، فما أن تعلمتُ صنعةً حتّى كرهتُها وفكرتُ في سبلِ الثراءِ السريع فتعرفتُ على شبابٍ يعملون لصالحِ بعض تجار المخدرات ويومَ أن قررتُ العملَ معهم إذا بحملةٍ من المباحثِ تأخذُهم جميعًا، وعلمتُ أنها رسالةٌ من الله فتعرفتُ على المسجدِ، ووجدتُ حلقاتِ القرآن فلزمتُها ووجدتُها ميدانًا أتفوقُ فيه على أقراني، فأنا أتمتعُ بذاكرةٍ خارقةٍ ولا أنسى أبدًا، وأتممتُ القرآنَ في ستةِ أشهرٍ لا لغرضِ ابتزاز أموال النّاس ولا التجارة به معاذ الله، وإنّما منذُ أتقنتُه والنّاسُ يقدمونني أصلي بهم، وانضممت لأئمة الأوقاف، وأعجبني ثناءُ أصحاب الوجاهة والمال على صوتي في القراءةِ، ودعوتُهم لي في المناسبة حتّى شعرتُ أنّي لستُ فقط ندًا لهم، بل أفوقُهم بدرجةٍ، وأيقنت أنّ القرآن يرفعُ أهلَه، ولكن ما زال بداخلي

هذا الطفلُ الناقمُ المتسخطُ الذي لم تعطه الدنيا أيًا مما يستحقُ، فبدأتُ أدرسُ كيف أدخلُ إليهم وآخذُ مِن أموالهم ما ظننتُ أنّه حقٌ لي، أتدري يا علاءُ أني غررتُ قبلك كبار التجار في البلدة وأنّ سترَ الله لم يرفع عني طوال أربعة عشر سنةً.

أتدري يا علاءُ أنّي لم أحبب أحدًا في حياتي مثل ما أحببتك أنتَ وعائلتك، ولطالما قمت الليالي أصلي وأدعو أنْ أكون خليقًا بمصاهرتكم، وأنّي ما كنتُ أريد مِن الدنيا أكثرَ من ذلكَ، وكنت أتعجّب مِن نفسي كيف أريد أنْ أصبح واحدًا منكم ولا أفتئ أسرقكم، أتعلمُ يا علاءُ أنّ راتبي من الأوقاف لا يكفي سبعةَ أيامٍ من الشهر، وأنّ الأرضَ وما عليها من بيتٍ بطوابقه الثلاث والسيارة كلّها من سرقةِ النّاس، ولمّا أذهب إلى البيتِ وأنظرُ إليه فإذا هو كالقبر رغم موقعه المتميز، ولا أستطيعُ تشطيبه ولا بيعه، وأنّي بلغتُ السابعةَ والثلاثية ولم أخطب، وأتردد عند ترشيح أحدِ المحبين لأيّ فتاةٍ، وأقول بأيّ وجهٍ تفتح بيتًا وأنت السارقُ؟ وأستغفر وأتوب ثمّ أعودُ وأسرقُ، أتدرى عندما قلتِ لك أنّ بي جِنًا، أنا لم أكذب ولم أبالغ فكثيرًا ما أجد نفسي معتقلَ اللسانِ محبوسَ الحركة، لا أستطيعُ النومَ ولا اليقظةَ، وعندما يُسرّي عني أقول هذا ذنب علاء ومَن قبله، سأنطلقُ الآن إلى البيت أسلمك السيارة وأتنازلُ لك عنها غدًا، وإنْ كنتُ أنصحك فقد نصح الشيطانُ أبا هريرة وصدقه النصيحةَ.

لا تمنح ثقتك لأحدٍ حتّى يوقّع عقلك مع قلبك، فلا تثق بالعواطفِ وحدَها فهي خادعةٌ، ولا تظن في حاملِ القرآن ومعلمه للناس أنّه ملاكٌ، فإنّما هذا عملُه كما أنّ التجارةَ عملك، وهو بشرٌ كسائر البشر يحرّكه ما يحرّكهم من نوازعِ الخيرِ والشرِ، وإذا حركك الغضبُ تجاهي وأخذتك رغبةُ الانتقام فلتعزّ نفسك بما آل إليه حالي من ضيقٍ ومعاناةٍ، ولا ألومُك إن قررتَ فضيحتي، فهذا ما استحقه، ولكن اذا خلوتَ بربك فلا تبخل عليّ بدعوةٍ صادقةٍ لعلّها تنتشلني مما أنا فيه، ويكفيك أنّ الذي يؤمّن على دعاءك ملكٌ كريمٌ لم تلوثه الخطايا والذنوبُ، وسامحني وإنْ لم أردد إليك كلّ ما سلبتُه منك فهو ذخرٌ لك وعدةٌ يومَ القيامةِ، ويعلمُ اللهُ أنّ هذا أصدقُ مشهدٍ في حياتي، ولم أنطق فيه بكلمةِ كذبٍ واحدةٍ، ولي عندك طلبٌ أخيرٌ ألّو اتصلتُ أطمأن عليك تتكرم وترد عليّ حتّى تشعرني أنّي ما زلت إنسانًا ولا تشوه صورتي عند أمّك فإنّ تسامحها معي رغم ما بلغها عنّي وتصديقها عزمي على السداد يمدّني بثقةٍ

ويقينٍ أنّي سأصبح إنسانًا جديرًا بالحياةِ، ولا تتهم توبةَ أحدٍ انكشف عنه الغطاء.

أوهام الحب

كانت زميلتُه خلالَ فترةِ دراسةٍ استمرت خمسَ سنوات، كانتْ تراقبُ حبّه الكبيرَ لمساعدةِ الآخرين، وصفاتِه النبيلةَ التي تتجلى في عطاءه وتفانيه وتضحيته بوقته وجهده؛ لتقديمِ الدعمِ لزملائه، والذي يتخطّى الدعمَ الدراسي والأكاديمي ليسعَ الدعمَ النفسي، وتقديم النصحِ والمساعدةِ في الأوقاتِ والمواقفِ الصعبةِ، كانتْ داليا ترى أنّه يملكُ سحرًا خاصًا وطاقةَ حبٍّ تكفي لإسعادِ كُلِّ البشرِ، وعلى الرغمِ من كونها مثل غيرها مِن الزميلات التي تلجأ إليه لتوضيحِ المفاهيمِ الصعبةِ أو مشاركةِ الأبحاثِ إلا أنّ حديثَها لَهُ لم يكن يخلو مِن كلماتٍ لطيفةٍ تحملُ مشاعرَ تتعدى حدودَ الزمالةِ، إلى أنْ تطورت لغةُ التعبيرِ إلى تقديمِ هدايا صغيرةٍ تجسّدُ العنايةَ والاهتمامَ، وتحملُ كلماتٍ يمنعُها الحياءُ النطقَ بها مِن إعجابٍ وحبٍّ لهذا الشابِ المثالي الذي تتمناه كُلّ فتاةٍ.

بدأت ابتساماتُ داليا وكلماتُها الرقيقةُ ومظاهرُ اهتمامِها تفرضُ نفسَها في ذاكرةِ كريم الذي بدأ يبادلُها مثلَها، ومشاعرُ الاهتمامِ والحبِّ لها بدأت تتشكلُ تدريجيًا، حتّى غدا يبحثُ عن فرصِ اللقاءِ بها، والتواصل معها، ويمنحُها مكانةً خاصةً في قلبه لم يدلف إليها أحدٌ قطُ قبلَها.

بدأت هذه المكانةُ تتسعُ وتكبرُ، حتّى احتلّت القلبَ، وسيطرت على المشاعرِ، ساعدَ في ذلك طبيعتُه الكريمةُ وجوهرُه النادرُ، فهو لا يعرفُ إلا العطاءَ الكاملَ والبذلَ الشاملَ، بدأت زهرةُ الحُبِّ تنمو تحتَ أشعةِ لقاءاتٍ مشرقةٍ مليئةٍ بالوُدِّ، وتُسقى بماءِ الحنان والرعايةِ، حتّى فاحَ عبيرُها وانتشر شذاها، فتمنى كُلّ زملائهم في الدراسةِ أن لو تتفتح زهرةُ الحُبِّ في حياتهم كهذه حتّى تتلونَ حياتُهم بلونِ السعادةِ والفرحِ.

عمل كريمٌ بصيدليةٍ مجاورةٍ لبيته فور تخرّجه، ولم يتغير طبعُه الكريمُ وحبُّه للخيرِ، فجمعَ بين التفوقِ العلمي والرحمةِ بالنّاس والشعورِ بآلامهِم، ولم يلبث إلا قليلًا حتّى ذاع صيتُه، وازدحمت الأقدامُ في ورديته بالأسئلةِ والاستفساراتِ، يطلبونه باسمِه، ويلتفون حولَه باهتمامٍ، ويعتذرون لغيرِه إذا عرض عليهم المساعدةَ، فهم جاءوا لأجلِ كريمٍ، ذاك الصيدلي الإنسانُ الذي يسمعُ بعنايةٍ، ويتجاوزُ حدودَ دراسته؛

ليقدمَ حلولًا بديلةً مِن أعشابٍ وخلاصاتٍ طبيعيةٍ، متحفظًا عندَ وصفِ الأدوية الكيميائية إلا في أضيقِ الحدودِ تجنبًا لمخاطرها الجانبيةِ، وكانَ يصحبُ هذا الزحامَ انخفاضُ المبيعاتِ رغم امتلاءِ رفوفِ الصيدلية، ولكنّ كريمًا رضى بضميره أنْ يكون الحاكمَ، وبدعاءِ النّاس أن يكون هو المقابلَ.

ولكنّ صاحبَ الصيدليةِ لم يقنع بشهرةِ صيدليته، وازدحامِ الأقدامِ ما لم يُترجم ذلك مالًا وأرباحًا، فزار الصيدليةَ في عصرِ يومٍ كانت فيه الشمسُ مترددةً بين الظهورِ والغيابِ، وبينما كريم منشغلًا كعادته بتقديمِ النصائحِ للمرضى، وتخفيف معاناتهم بكلامِه الطيبِ وشعوره الرحيمِ، فنادى عليه: كريمُ! لدي شيءٌ مهمٌ أريدُ مناقشته معكَ، فدخل كريمٌ غرفةَ الإدارةِ ليقول لَهُ صاحبُ الصيدليةِ: أقدّر جيدًا ما تحملُه مِن خيرٍ وعطاءٍ وإنسانيةٍ، وأنّك تضعُ مصلحةَ المرضى فوقَ كُلّ اعتبارٍ، وأعلمُ أنّك كنتَ مصدرًا للراحةِ والعلاجِ لكثيرٍ مِن النّاسِ، ولكنّ المبيعاتِ في انخفاضٍ مستمرٍ بسببِ نصائحك وتوصياتك، ونحن هنا في صيدلية، أيّ عمل تِجاري لَهُ متطلباتٌ، ولن نستطيع الاستمرارِ في تقديمِ خدماتنا دونَ تحقيقِ أرباحٍ، ولقد تحدثنا في ذلك أكثرَ من مرةٍ دونما تغيير وقد اتخذتُ قرارًا ثقيلًا على نفسي بالاستغناءِ عنك مع الاعتزازِ بمعرفةِ إنسانٍ نبيلٍ مثلك، وأتمنى أنْ يرزقك اللهُ عملًا تفرّغ بِهِ رصيدَ الإنسانيةِ الهائل لديكَ، وتنتفعُ بِهِ في دنياك وآخرتك.

لم يخفف عن كريمٍ ألمَ الصدمةِ إلا كلماتٌ داليا، التي أخذت تحفّزه بالبحثِ وعدم الاستسلامِ كي لا يتأخرَ عن التقدمِ لخطبتها، فأبوها مِن أصحابِ المصانعِ، وبناتُ الأثرياءِ يكثرُ طلابُهنّ.

كان كريمٌ مميزًا في كتابةِ الأبحاثِ، واشتهرَ بذلك بين أروقةِ الكليةِ، فكانت كتاباتُه تفيضُ بالمعرفةِ والدقةِ والأسلوبِ السليم، مما دفعه للبحثِ عن عملٍ في مجالِ الكتابةِ الأكاديميةِ لطالبي الدراساتِ العليا بكلياتِ الطبِ والصيدلةِ، يعلّمهم كيفيةَ الكتابةِ، واستخراج المصادر والاستشهادِ، ويعاونُهم في البحثِ عن أفضلِ المجلاتِ العلميةِ لنشر أوراقهم البحثيةِ، وبعد بحثٍ وجد كريمٌ مكتبًا متخصصًا في تقديم الخدماتِ الأكاديميةِ، يمتلكُه دكتور بكليةِ الطبِ بنفسِ الجامعة التي تخرج فيها

كريم، أعجب كثيرًا مِن مستوى كريمٍ حتّى قامَ بترقيتِه بعد أن اكتسبَ الثقةَ فيه وفي مستواه ليقومَ بإعدادِ رسائلِ الماجستير والدكتوراة كاملةً لصالحِ الطلبةِ دونَ أيّ مساهمةٍ من الطالبِ، وإنّما مقابلُ مبالغِ كبيرةٍ يدفعُها ليحصل بها على الرسالةِ كاملةً، على أن يقتصرَ دورُ الطالبِ على الاجتماع بكريمٍ لتلقينه الردودَ على الأسئلةِ المحتملةِ من لجنةِ المناقشةِ حتّى يكتبها ويعكفَ على حفظِها قبلَ موعدِ المناقشةِ.

ما إنْ صارحَ كريمًا بذلك، وقوله: ما عليكَ إلا أنْ تساعدَ الطلبةَ أن يحصلوا على الدرجةِ العلميةِ، فهُم ليس لديهم وقتٌ لدراسةٍ وبحثٍ، ولا حتّى فَهم كُلّ كلمةٍ في البحثِ، ولا داعي لما تقوم بِهِ مِن تفاني وإخلاصٍ، فإنّ ذلك يُهدرُ الوقتَ الكثيرَ، وما نقدّمه ليس خدمةً تعليميةً تهدفُ إلى الارتقاءِ بمستوى البحثِ العلمي في الأمّةِ، وإنّما خدمةٌ تِجاريةٌ نحصل منها على المالِ، ويحصلُ بها الطالبُ على اللقبِ والمكانةِ الاجتماعيةِ، وسوف أضاعفُ أجرك ثلاثةَ أضعافٍ في المهمّةِ الجديدةِ.

رد كريمٌ بحزمٍ: شكرًا لك سيادةَ الدكتور، احفظ عليك مالك، فلن أستطيعَ أن أشاركَ في عملٍ كهذا، سأبحثُ عن مكانٍ يتوافقُ مع مبادئي وأخلاقي.

خرج كريمٌ وقد تركَ وراءه عالمًا مِن الفرصِ الماليةِ الكبيرةِ، لكنّه يعلمُ أنّ نزاهتَه وقيمَه وإنسانيتَه ليست مجالًا للمساومةِ، وأنّ ثمة مكانًا في هذا العالمِ سيقدّرُ إخلاصَه، ويجدُ فيه مِن النّاس مَن يحملون نفسَ الشعورِ، ويشاركونه نفسَ الرؤيةِ.

اشتعلت داليا غضبًا بتركِ كريمٍ للعملِ، وطفقت تلومُه وتؤنّبُه، وتضربُ لَهُ الأمثلةَ أنّ هذا يحدثُ في أماكنَ عديدةٍ، وأنّ الأجرَ مغرٍ، وأنّه كَانَ مُعِينًا على الإسراعِ بالخطوبةِ، فقاطعها وماذا عن خيانةِ الأمانةِ والغشِّ في العملِ؟ فصرخت بِهِ ما كُلّ هذه المثاليةِ، لماذا أنتَ مختلفٌ عن النّاس؟! ردّ عليها كريمٌ: إنْ كَانت مقاومةُ الإغراءاتِ والتمسكُ بالمبادئِ مثاليةً واختلافًا فأنا أوّل المختلفين.

لم يقف كريمٌ طويلًا عند ثورةِ داليا، فهو يعلم أنّ الدافع هو حبُّها العظيمُ ورغبتُها الجارفةُ في اجتماعهما، وأنّها لا تؤمن بما تقولُ، وإنّما مدفوعةٌ بعواطفَ مشتعلةٍ لا تحملُ معها أيّ منطقٍ.

بدأ كريمُ الاتجاه إلى مجالِ التغذيةِ الصحيةِ، وأنفقَ مدخراته في برامجَ تدريبيةٍ، يتعلمُ فيها احتياجاتِ التغذية في مختلفِ مراحلِ العمرِ، وتقييم الحالةِ الغذائية للأفرادِ، واستخدامِ التغذية في علاجِ الأمراضِ، حتّى أصبح قادرًا على تقديمِ استشاراتٍ غذائيةٍ للأفرادِ والمجموعاتِ، ووضع خططًا غذائيةً بناءً على احتياجاتهم الصحيةِ وأهدافهم، وكذا تقديم برامج تدريبية عبر الإنترنت، حتّى ذاع صيتُه، وبدأ يجني بعضَ المالِ والذي لم تسمح لَهُ داليا أن يكبرَ وينموَ، فقد يستغرقُ ذلك وقتًا كثيرًا، وإنّما يكفي أن يتقدمَ كريمُ لخطبتها ومعه ما يشتري الشبكةَ وبعض الهدايا الفخمة التي تبهر أعين أبيها وأمّها اللذين تصدر كُلّ أحكامهما وتقديراتهما مِن ميزانِ المادةِ، فيجولان بنظرتهما المادية بين النّاسِ والأشياءِ ليترجما كُلّ ما يقابلهما إلى مبالغَ من المالِ وأرقامٍ من الربحِ والخسارةِ.

اقتنع عسران والدُ داليا بهذا الشابِ الذي يحملُ قلبًا يجمعُ بين الطموحِ والعزيمةِ وأحلامِ الخيرِ والسعادةِ لكُلِّ البشرِ، لم تكن مهمّةُ كريم سهلةً، فلغةُ الإنسانيةِ التي كانَ يبرزُ بها تخليه عن أعماله السابقةِ لا يستوعبُها أصحابُ القلبِ الجليدي أمثال عسران، ولكنَّ الأيامَ كشفت أنَّ اقتناعه لم يكن إلا لتسكينِ خاطر ابنته، التي تراقصت الفرحةُ في عيونها، وتلألأ وجهها نورا مِن الحبِّ، فقد رضي عسران أن يمهلَ هذا الشابَ الجميلَ عامًا حتّى ينتهي مِن تجهيزِ بيتِ الزوجيةِ، وكانت مهلةً كافيةً لعسران، يراقبُ فيها سوقَ الزواجِ على أملِ ظهورِ عريسٍ أكثر ثراءً يُقدم عرضًا ماليًا أعلى فيفوزَ بابنته.

وبالفعلِ لم يمر ثلاثةُ أسابيعَ على الخِطبةِ حتّى بدأ عسرانُ يضغط على كريمٍ، ويتعجّل موعدَ الزواجِ، في ظلِّ استغرابٍ مِن كريمٍ وعائلته الذين اتفقوا على سنةٍ لم يمر منها الشهرُ الأوّلُ، ولا يمرُّ يومٌ دونَ اتصالٍ وإلحاحٍ لا يهتمُ فيه عسرانُ بوعدِه واتفاقه، ولا يخشى على صورتِه والتي باتت باهتةً ومملةً، إلى أنْ كشفَ عن وجهِه الذي تعلو قسماتِه الماديةُ والمصلحةُ والجشعُ، وأبلغَ كريمًا أنَّ ثمة عريسًا – يقصد مشتريًا – لابنته تقدّم لخطبتها، وأنّه يملكُ مِن المالِ ما لا يمكن معه رفضه، وبالطبعِ لم يكن يعلمُ بخِطبتها، واستطرد قائلًا: كُلّ أبٍ يتمنى لابنتِه السعادةَ، وللحياةِ تكاليفُ كثيرةٌ، وأرى أنّك في بداية الطريقِ، وأنت شابٌ جميلٌ، والحياةُ أمامَك مليئةٌ بالفرصِ،

وأنا أقدّر رحابَة صدرك وتفهمك، وأتمنّى لك كلّ الخيرِ في مستقبلك.

لم تكن صدمةُ كريمِ كبيرةً لما رأى مِن الرجلِ وزوجتِه مِن بخلٍ خلالَ زياراته القليلة، والتي تدوم لساعاتٍ لا يقدّمون فيها لضيفِهم خطيبِ ابنتهم سوى كوبٍ من الشاي، أو عصيرِ الليمون، فلم تكن في قائمةِ الضيافة سوى هذين المشروبين، وهم أهلُ المالِ والغنى، وكانَ عليه أنْ يختار بينهما دونما تقديم أيّ مما كانَ يحمله معه في زياراته من حلوى فاخرة.

ولكن الصدمة الحقيقية والألم الذي أحرقَ كلّ أخضر في أرض كريمِ، وأظلم سماءه وحفرَ جرحًا في أعماقِ روحه، حتّى غابت الكلماتُ عن شفتيه، وكأنّه نسي الحروفَ والكلماتِ عندما ردت عليه داليا بأنّها موافقةٌ على ما قال أبوها، وأنّها لم تخدعه أبدًا في حبّها، ولكن الحبّ مهما بلغت حرارتُه لن يخبزَ رغيفًا أو يشبعَ معدةً، وأنّها خسرت حبّه وهي موقنةٌ أنّه لا يعوّض، وأنّ حبّ العشرةِ المرتهن بالزواجِ والذي قد يأتي أو يغيب لن يعوضها أبدًا حبٌ كريم، وختمت كلامَها: أعلمُ أنّي سأعضُّ أصابعَ الندمِ، ولن أجد إنسانًا مثلك، فأنت نادرُ الوجودِ، ولكنّي اخترتُ طريقَ الوفرة، فلا يكفي الحبُّ وحده درعًا في وجه عواصفِ الحياةِ وتقلباتِ الزمانِ، ولكنّ المالَ يكفي لذلك وزيادة.

لم يقوَ كريمٌ على النطقِ بكلمةٍ، ولم يشعر بخطواتِه ولا النّاس مِن حوله، حتّى وجد نفسَه محاصرًا بالحزنِ في غرفتِه، يتنفس بصعوبةٍ؛ لأنّ قلبه مثقل بذكر أوقاتِ الحُبّ الجميلةِ بينهما، ودقات قلبِه التي تتسارعُ برؤيتها، ولحظات اللقاءِ الأولى، والذكريات الغالية التي دامت سنواتٍ وحفرت في القلب والروح رسمًا لا تمحوه الأيامُ، ويتساءل في ذهول كيف تبيعُ الحُبّ بهذه السهولة؟! ونحن بعد لم نواجه تحدياتٍ، ولم تُزرع بعد في طريقنا الأشواكُ؟ كيف ونحن في بداية المشوار، وهي تعلم أنّ عندي ما يكفلُ لنا حياةً كريمةً، فلن نجوعَ، ولن نستدين كي نحققَ أحلامنا، ولم أطلب الخطبةَ أن تطولَ سنواتٍ، ثم صاح نعم الآن فهمتُ، هي لم تلبس دبلةَ الخطوبة إلا يومَ الاحتفالِ، وخلعتها معللةً ذلك بحساسية جلدها للذهبِ، هذا إذًا عهدٌ واتفاقٌ بينها وبين أبيها، يا لغفلتي وسذاجتي، ويا لغدرها وضيق عقلها، باعت الحُبّ بثمنٍ بخسٍ وكانت فيه من الزاهدين، واشترت الوفرة ورغدَ العيش، قالت إنّ الحُبّ

Telegram:@mbooks90

لا يخبز رغيفًا، لكن المال يشتري المخبزَ والخبّاز، وتقولُ إنّ حبها كَانَ صادقًا يوم أنْ قالت سأحبكَ لآخر العمرِ، وهل للعمرِ طعمٌ إلا في رحابِ المحبوبِ، وكيف السبيل إلى متاعٍ والمحبوبُ غائبٌ؟

تزوجت داليا مِن هذا الشابِ الذي فاق أباها في الثراءِ أضعافًا كثيرةً، والذي لم يختلف في نظرته إليها عن نظرةِ أبيها، فقد كَانَ يعاملها كأحدِ ممتلكاته الشخصيةِ التي دفعَ فيها أكثرَ مِن ثمنها؛ لتلبي أوامرَه وتحققُ رغباتِه وفق مرادِه وطريقتِه، ولا رأي لها ولا إرادةَ، فمَن يدفع أجرَ العازفِ يحق لَهُ اختيار اللحنِ، كَانَ يعاملها كالخادمةِ ولا يقدّم لها الحُبّ إلا على فراش الزوجية، فلا يهمسُ في أذنيها بالكلامِ المعسولِ، ولا يقدّم لها ما يشبعها من مشاعرَ، فعاشت معه تجتر الحُبّ والمشاعرَ الصادقةَ التي غمرها بها كريمٌ، وتسكن إلى طيفه كلّما نادى منادي الغرامِ، وترى صورتَه في وجه كُلّ محبٌ صادقٍ، وتبيت الليالي الطوال ودموعها تبلُ وسادتها، وهي تقولُ، ليتني اشتريت حريةَ قلبي فكنتُ مع كريمٍ حيث كان، فقد امتلكتُ كُلّ شيءٍ وضيعتُ الحُبّ.

لم يندمل جرحُ كريم ولم تشفَ ندباتُ قلبِه أو تهدأ آلامُ روحِه، حتّى ظهرت هُدَى نجمةً بددت ظلامَ سماءه، وصارحته بما يحملُ قلبُها لَهُ من إعجابٍ قديمٍ منعه أن يخرجَ مِن قلبها إلى لفظها ارتباطه بداليا، وأنّها لم تترك الدعاءَ يومًا أو تفقد الثقةَ أن اجتماعهما ممكن وإنْ غابت أسبابُه، أظهرت دون خجلٍ أنّها مُنذُ رأته وكَأنَ قلبها مِن وقتها كَانَ ينبضُ لأجله، وأنّها لم تتصور مستقبلَها إلا بقربِهِ، وأنّ حياتها لا تستحقُ العيشَ إن لم يكن هو شريكُها، وأنّها ستكون لَهُ السندُ والملاذُ والدواءُ، على الرغم مِن صدقها الذي أدركته روحه وتسللَ كنسيمِ الفجر إلى نفسه مخترقًا حواجزَ الشكِ والخوفِ إلا أنّ أقفالَ قلبِه لم تفتح، وكأنّما مفاتيحها ضاعت عند داليا.

كانت هُدَى تدركُ أنّ جراحَ الحُبّ يطولُ ألمُها، وتأبى الشفاءَ ولكنها صبرت طويلًا فلا يضيرها أن تتحملَ المزيدَ سيما أنّها الآن بقربه وأنّ السبيلَ إليه صار ميسورًا، وأنّ بزوغَ فجرِ يومِ اجتماعهما بات قريبًا.

أدركت هُدَى أنّ قلبَ كريم يحتاجُ إلى أكثرَ مِن مجردِ تعزيةٍ، فبدأت تنسجُ من

خيوطِ الأملِ والحنانِ غطاءً يحميه مِن قسوة الذكرياتِ، كانت تُقدّر مشاعرَه، وتشجعه على إخراجِها بمشاركةِ بعض تجاربها الشخصيةِ ومشاعرِها، حتّى تفتح في قلبِه نافذةً وتبني جسرًا تنفذ خلاله إلى قلبِه، فتخرج ما فيه حتّى تخفف آلامه، وتشعره أنّ هذا قدرُ المخلصين أمثاله، وأنّ تجاربَ الحياةِ مؤلمةٌ، وأنّ مشاركتها وإخراجَها مِن القلب أدعى للتعافي، ونجحت بتعاطفها الصادقِ وتشجيعها اللطيفِ في فتح أقفالِ قلبه والبوح بما يعتمل في نفسه مِن أوجاعٍ.

وكان هذا البوح بريدَ حبٍ خائفٍ، يخشى النورَ فيبقى حبيسًا في قلبٍ كريم الذي كانَ يتأرجحُ بين رغبته في الحُبّ ومخاوفه مِن الألم، كانَ خائفًا أنْ يحبها فينغمس في تجربةٍ جديدةٍ مريرةٍ، فكلّما كانَ يشعر بدفء مشاعرها يغمره وكأنها النورُ الذي يبددُ ظلامَ قلبه، والهدى الذي يرشده إلى طريق الهناءِ، سرعان ما تهاجمه الشكوكُ بلا رحمةٍ وتصرخ في وجدانه أنّ الحُبّ مجردُ أوهامٍ، وأنّ كُلّ النساءِ قد يسببن لَهُ الأذى كما حدثَ مِن قبلُ.

كانت هُدَى دومًا بجانبه في تلكَ اللحظاتِ العصيبةِ، لا تضغطُ عليه أو تستعجله، بَلْ تطلبُ منه أنْ يصبرَ على بذرةِ الحُبّ في قلبِه، فكلّما سقاها بماءِ الأملِ والثقةِ نمت وأزهرت وحوّلت خريفَ القلبِ إلى ربيعٍ دائمٍ، كانت تحاولُ بكلماتِها العذبةِ والحكيمةِ أنْ تنسجَ خيوطَ الضوءِ حولَ علاقته الأولى؛ لتنيرَ لَهُ ما استتر، ويستوعبَ ما كانَ غائبًا عن إدراكه؛ لأنّه كانَ مدفوعًا بمشاعره، فلا يرى في داليا الأنانيةَ الظاهرةَ والبخلَ الواضحَ، والذي كانَ يراه بجلاءٍ في أبيها وأمّها، ويمنعُه حبُه أن يراه فيها، فهي في الحقيقةِ لم تكن تحبّه وإنّما تحبُ عطاءه وما تأخذه منه، وعندما جاء الاختبارُ ودورُها في العطاء وأن تقدّم الحُبّ على المالِ لم تستطع تسلقَ أسوارِ بخلها العاليةِ، ولم تسمح لشعاعِ الحُبّ أنْ ينفذ مِن قلبها بعدما تراكمت عليه غاباتٌ كثيفةٌ مِن الشحِ وحبّ الذات.

فتحت كلماتُ هُدَى أبوابَ الفَهم والتفكيرِ العميقِ، وجعلت كريمًا يعيدُ تقييمَ التجربةِ، وينظر إليها نظرةً مختلفةً، فلم تعد داليا تسيطرُ على خياله، ولم يعد قلبُه يتألمُ عند ذكرها، وأيقن أنّها لا تستحقُ اللحظاتِ التي ينشغلُ الذهنُ بها، ولا المشاعرَ

التي تصاحبُ ذكرها، وأنّ مثلَ تلك الروح الجامدة التي لم تجد في قلبها مأوى لمشاعره الحقيقية لا تستحق إلا أنْ يشفقَ عليها ويرثى لحالها، فمثلُها يعيش خاسرًا دائمًا وإنْ ربحَ كُلّ شيءٍ، أمّا حبٌ كريمٍ لهدى فقد وُلد ناضجًا وإنْ كَانَ مخاضُه عسيرًا، فقد خرجَ من رحمِ الألم ولكنه خرجَ قويًا ضاربًا بجذورِه في وجهِ العواصفِ، راسمًا صورةَ الصدقِ في صحراء الأنانية.

وما إن تقدّم كريمٌ لخِطبة هُدَى حتّى احتفى واحتفل أهلُها بِهِ وبأهلِه، بَلْ لم يشترطوا عليه تجهيزاتٍ أو يجبروه على أيّ شيءٍ، وكَانَ ردّهم على استفساراته بشأن ترتيبات الزواج (إنّما نشتري رجلًا، احضر ما شئتَ واترك ما شئتَ) كَانت هذه العبارةُ بمثابة مكافأة لَهُ على صبره وصدقهِ، وقد أعادت لَهُ الثقةَ أنّ الحُبّ الصادقَ ما يزال يعيشُ بيننا، وليس كُلّ الحُبّ أوهامًا.

قوانين القلب والعقل

لم تقنع ديما بتلك الحياةِ التي لا تجتمعُ فيها بأمّها سوى مرتين في الشهر، وكانت تطلبُ مِن جدّها الاتصالَ بأمّها، وتدخلُ بالهاتفِ إلى غرفتها تبكي لأمّها وتستميت في طلبِ الرجوعِ لهم والعيش معهم، فهي لا تريدُ حلوى ولا ترفيهًا، وإنّما تريدُ أنْ تجتمعَ بأبويها تحت سقفٍ واحدٍ فتمتلأ جنباتُ البيتِ سعادةً ودفئًا وأمانًا، تصاعدت رغبةُ الأطفالِ في عودة الأمّ، إلى أنْ كانَ يوم اجتماعهم بها، وما إنْ رأت ديما أمّها حتّى ارتمت في أحضانها بقوةٍ، وقالت بصوتٍ يرتعشُ مِن البكاءِ: هذه المرةُ لن أعودَ إلى بيتِ أبي، ولن أتركِكِ أبدًا، وسأكون حيثُ تكونين، وسأعيشُ معكِ طالما أنّك ترفضين العيشَ معنا، بدأ حسنُ يبكي بحرقةٍ وهو يجذبُ ديما مِن حِضن أمّها ومظاهرُ الفزعِ على وجهه، وهو يسألُ أخته وتوأم روحه أتتركيني وحدي وتذهبين عند أمي!

كان بهذا المشهدِ مِن الألمِ ما يكفي لبكاءِ الحجارةِ وإسدالِ الظلام على الكون، الخواء والضياع يمتزجانِ في قلبين بريئين ليس لهما في الدنيا جريرةٌ إلا أنّهما وُلدا لأبوين يأبى كبرياؤهما أنْ ينكسر، وجبروتُهما أن ينثني وعنادُهما أنْ يتصدع، فقد بلغ الطفلان الرابعةَ من عمرهما، وحياتُهما الزوجية معلّقة فما انفصلا ولا عادا إلى رباطِ الأسرةِ، ولكن الأمر هذه المرةُ كسر قلبَ ياسمين، وأحرقَ فؤادَها، وأدركت أنّ الأمورَ باتت تتجهُ نحوَ مفترقِ طرقٍ لا يمكن تجاهله.

بدأت تفكر في اللجوءِ إلى الاستشاراتِ الأسريةِ للحصولِ على المساعدةِ والنصائحِ في تقريبِ وجهاتِ النظرِ بينها وبين أشرف، كانت تدركُ أنّ السبيلَ الوحيدَ لتخفيف التوترِ وحلِّ الخلافاتِ هو الحوارُ والتفاهمُ بطريقةٍ بناءةٍ ومثمرةٍ بمساعدةِ الخبراءِ والمرشدين الأسريين والالتزام بتنفيذ توصياتهم وأساليبهم، وهذا ما ضمنه والدُ أشرفَ بعد أنْ أخبرته ياسمينُ، فعلى الرغم أنّ للقلبِ والعقل قوانينَ تفرضُ نفسَها وتؤثر على السلوك إلا أن توفير رؤى مختلفة وادراك العواقب قد يمكنان كلّ منهما من إعمال كلًا من القلب والعقل معًا واتخاذ خيارات أكثر حكمة وشمولية وإعادة توجيه دفة الحياة.

اشتهر أشرف بدقته في العمل وانضباطه وروتينه الذي تخطّى حدودَ العملِ

ليشملَ كلَّ تفاصيلِ حياته، كانَ لا يعتمدُ على أحدٍ في إيقاظه أو كي ملابسه أو ترتيبِ غرفته أو إعدادِ طعامه، فقد كانَ يستمتعُ بفعل كلِّ ذلك بنفسه، ولا يحتمل أن يوكل لأحدٍ تجهيزَ أو إعدادَ أيّ شيءٍ يخصّه؛ لأنّه على يقينٍ ألا أحدَ يملكُ معاييرَه العاليةِ والتزامه، وكانَ عملُه كمدققٍ مالي في شركةِ ملاحةٍ أشبه بصانعِ الساعاتِ السويسرية الذي يركّبُ أجزاءها بدقةٍ فتعمل بتناغمٍ ودون انحراف، تأثر أشرفُ دون باقي إخوانه بتربيةِ أمّه وطريقتها التي لم يخطئها أو يحيدَ عنها وكأنّما تجسدت سماتُ أمّه بأكملها في شخصه، إلا أنّه لم يستطع رسمَ اللوحاتِ الزيتيةِ وإتقان التطريزِ مثلها، وكانا متفقين أنّ تلك هي سماتُ الزوجةِ الناجحةِ والأمِّ الرؤوم، أمّا زكريا والدُ أشرفَ يرى أنّ مقياسَ الصلاحِ والكفاءةِ الأوحد في المرأةِ أنْ تكون عاملةً؛ لتشاركَ في تكاليفِ الحياةِ، وتكون السندَ بعدَ التقاعدِ والعونَ في الأوقاتِ الصعبةِ والملماتِ، كانَ يستثمرُ المناسباتِ والأسفارَ واللقاءاتِ في البحثِ عن مشروعِ حياةٍ جديدةٍ لابنه وشريكةِ حياةٍ مناسبةٍ، تقدّم لَهُ الدعمَ المادي مع العاطفي حتّى ساقها القدرُ لتجلسَ بجواره في القطارِ في رحلةِ العودةِ إلى بلدها بعد تدريبٍ على أحدثِ الأجهزةِ في مجالِ العلاجِ الطبيعي؛ لتطوير ممارستِها العلاجية في عيادتِها الخاصة وبالمشفى الذي تعملُ به.

استقر في وجدان زكريا أنّها الشريكةُ المثاليةُ التي كانَ يبحثُ عنها، ولم يتردد في طلبِ رقم هاتف والدها وعنوان بيتهم، وتفاعلت معه بودٍّ، وأعطته المعلوماتِ بسرور.

لم تختلف نظرةُ والد ياسمين لعملِ المرأة عن نظرةِ زكريا، بَلْ كانت أكثرَ تطرفًا، فكان يراه مقياسًا للقيمةِ الشخصيةِ وضرورةً للاستقلال المالي، فتكون ندًا لزوجها وميدانًا للنجاحِ والتألقِ إنْ أخفقت في حياتِها الزوجيةِ تعود إليه تحققُ فيه الطموحَ، وتشيّد الإنجازاتِ بدلًا مِن أنْ تبكي حظّها وترثي حالَها.

لم يسعَ أشرفُ ولا ياسمين خلالَ أيامِ الخطوبة إلى البحثِ عن القواسمِ المشتركةِ والاهتماماتِ المتبادلةِ؛ لبناءِ جسرٍ من التفاهمِ وتقريبِ وجهاتِ النظرِ، وإنّما سعى كلٌّ منهما لفرضِ إرادته، وإملاءِ شروطِه، وإثباتِ أنّ رأيَهُ عينُ الصوابِ، كانَ أشرفُ يرى أنّ الدورَ الأسمى للمرأةِ هو رعايةُ البيتِ والأسرةِ، وأنّ التوفيقَ بينَ العملِ والأسرةِ

مجرد وَهمٍ لا حقيقةَ له، وترى ياسمينُ أنَّ التوازنَ ممكنٌ، وأنَّ عملَها طبيبة علاجٍ طبيعي ليس مجردَ وظيفةٍ، بَل رسالة إنسانية لا تقلُّ أهميةً عن تربيةِ الأبناءِ، كما أنَّها ترى فيها هويتها وشغفها.

لم تُحسم خلافاتهما قبل الزواجِ، وإنَّما توصلا إلى تسويةٍ مؤقتةٍ: وعدت ياسمينُ أنَّ البيت إذا تأثرَ بعملها بعد الزواجِ فإنها ستترك العمل، مرت السنةُ الأولى دون مشكلاتٍ كبيرةٍ إلى أن رزقت ياسمين بتوءمين وبعد ثلاثة أشهر فقط من إجازةِ رعاية الأطفالِ، عادت إلى عملِها مصممةً على الحفاظِ على التوازنِ بينَ مهنتِها وواجباتها الأسريةِ، وترى في المستقبلِ فرصةً لتحقيقِ أحلامها العائليةِ والمهنيةِ.

لجأت ياسمينُ إلى جليسةِ أطفالٍ موثوقةٍ؛ لترعى شؤون التوأمين، وتلبي احتياجاتهم، أشعلت هذه الخطوةُ نارَ الخلافِ، وشعر أشرفُ أنَّ وجودَ جليسةِ أطفالٍ بدلًا مِن حضور الأمِّ يهددُ مستقبلَ الأسرةِ.

ياسمينُ، لقد وعدتِ أن تتركي العملَ إذا تأثر البيتُ! قالها أشرفُ بحزمٍ محاولًا كبحَ غضبِه، نظرت إليه ياسمينُ بثباتٍ، ورفضت التراجعَ: أشرفُ، أنا أفي بوعدي، البيتُ لم يتأثر، والأطفالُ يحصلون على الرعايةِ اللازمةِ، أنا أحبُّ عملي، ولا أريدُ التخلي عنه، فأنا إذًا أتخلى عن جزءٍ مِن نفسي.

مرت الأيامُ مليئةً بالتوترِ، كلٌّ يريدُ فرضَ رؤيته الخاصة على الآخر، غير مستعدٍّ للتنازل أو إيجاد حلٍّ وسط، كانت الهوة تزداد اتساعًا، والحلول تتباعدُ، حتى صرخ أشرفُ ذاتَ مساءٍ بعد عودةِ ياسمين مِن العملِ قائلًا: علينا أن نحسمَ هذا الأمرَ الآن، عليكِ أن تختاري: إمّا أنا والأولاد، أو العمل.

كانت كلماتُ ياسمين قويةً وحازمةً ولم تترك مجالًا للتراجعِ: أشرفُ، العملُ جزءٌ منّي، لا يمكنني التخلي عنه، كما لا يمكنني التخلي عنكم. لكن إن كانَ عليّ أن أختارَ فاختياري واضحٌ.

بدأ أشرفُ يجمعُ ملابسَ التوأمين، يطويها بعنايةٍ، ويضعها في حقيبةٍ كبيرةٍ ويداه ترتعشانِ، ومشاعرُ الخيبةِ تملأُ قلبَه، وثقل العالم استقرّ على كاهلِه، فهو يعلمُ أنَّ

حياةً جديدةً مع أبناءه في منزلِ والديه لن تكون سهلةً. أخذ يطالعُ الغرفةَ بألمٍ قبلَ خروجه، ينظر إلى أسرةِ الأطفالِ وعليها الوسائدُ الصغيرةُ مزينةً برسومٍ ملونةٍ، يطالع الصورَ التي تحملُ ضحكاتهم والدمى والألعابَ التي تملأ جنباتِ غرفتهم. كانَ كلّ شيءٍ يبدو مؤلمًا، هذه المرة أغلقَ الحقائبَ، وغادر الغرفةَ بخطواتٍ بطيئةٍ متجهًا إلى حياةٍ جديدةٍ، محاولًا جمعَ شتاتِ قلبه، وتجفيف دموعِه، والاستعداد لمواجهةِ تحدياتِ الأيامِ القادمةِ.

سنواتٌ ثلاثٌ لم تفلح فيها محاولاتُ الإصلاحِ والتقريبِ بين ياسمين وأشرفَ، والأطفالُ تكبرُ في أحضانِ الجدّ والجدّةِ، ولا يجتمعون بأمّهم إلا مرتين في الشهر، تسأل ديما أمّها سؤالًا يتكررُ ولم تجد لَهُ إجابةً مقنعةً بالرغم مِن سهولةِ إقناعِ الأطفال:

- لماذا لا تعيشين معنا؟!

كانت ديما تحملُ مِن صفات أمّها الكثيرَ، وطريقتُها في المشي والكلامِ على الرغم مِن تربيتها بعيدًا عنها، وفي كلّ مرة تجد ياسمينُ نفسها غيرَ قادرةٍ على إيجادِ إجابةٍ مقنعةٍ، وتكتفي باحتضان حسن وديما، ودموعُها تنهمرُ، وهي تحاول جمعَ حروفها لتنطق بكلامٍ يشبه كلامَ البشرِ فيفهمه الأولاد، قائلةً: أنا هنا أحبائي أنا دائمًا هنا معكم وإن بعد جسدي عنكم فقلبي مسكنكم، ثم تأخذهم بعيدًا عن مرارة البعدِ وكآبةِ الحزنِ بشراء الحلوى والترفيه وجلب البهجة والسرور بزيارةِ الملاهي ومشاركتهم في جميعِ الألعابِ والفعالياتِ، فكانوا يعودون لبيتِ جدّهم محمّلين بالحلوى والسعادة، ويعدّون الساعات بلهفةٍ وشوقٍ للّقاء القادم مع والدتهم التي تغمرُهم بالحنانِ والحبّ ولكنها لا تعيشُ معهم.

لم يقتنع أشرفُ أبدًا بجدوى تلك الاستشاراتِ الأسريةِ، وكيف لطرفٍ ثالثٍ يُفضي كلّ منهما إليه بمشاعرِه ووجهاتِ نظره وما يسوءه من شريك حياته فيقدّم لهما العونَ ويساعدهما على تجاوز الخلافات! وهل للمرأةِ دورٌ إلا رعاية الأبناءِ، وهل لها مكانٌ إلا البيت! وهل ثمّة عملٌ في الدنيا أسمى مِن ذلك! عانى زكريا كثيرًا في إقناع ابنه بالخوضِ في هذه التجربةِ من أجلِ صحةِ الأبناءِ النفسيةِ وحياتهم ونموّهم في

بيئةٍ داعمةٍ ومحبةٍ، وأنَّ تلك الاستشاراتِ تقدّم بيئةً محايدةً في وجودِ متخصصين يساعدون في فَهمِ احتياجاتِ الأطرافِ، والعمل على إيجاد حلولٍ وسطية.

وافق أشرفُ على مضضٍ، وانطلق في رحلةٍ استمرت ثلاثةَ أشهرٍ، بدءًا من جلساتِ الاستماعِ المفتوح التي يعبّر فيها كلّ طرف عن مخاوفه واحتياجاته بشكلٍ مفتوح ودون مقاطعةٍ ليتيح فهمًا أعمقَ، وانتهاءً بجلساتِ التخطيط المشتركِ التي تمّ فيها إعدادُ وثيقةِ اتفاقٍ تعتبر احتياجاتِ ومصالحِ الطرفين، وتمّ كتابةُ البنودِ المتفقِ عليها بشكلٍ واضحٍ ومحددٍ، وكانَ توقيع الزوجين على الوثيقةِ بمثابة إعلان بالموافقةِ والالتزام بما جاء فيها.

كانت تلك الوثيقةُ طوقَ نجاةٍ للعلاقةِ الزوجيةِ، وبالرغم مِن رفض أشرفَ في بادئ الأمر وسخريته من الفكرة إلا أنّه سعى جاهدًا بمنتهى التجرد في إنجاحها لأجلِ أبناءه الذين أصبحوا ثلاثة بعد قدوم روان إلى الدنيا.

أيام المجد

كان يمضي ساعاتٍ طويلةً بين الزيوتِ والشحومِ والمعدّاتِ يصلحُ الدراجاتِ في محلّه الصغير الذي كَانَ ملاذًا للدراجاتِ المتهالكةِ والمكسورةِ، لم يكن لَهُ ذكرٌ بين النّاسِ سوى زبائنه القلائل الذين كانوا يأتون إليه لإصلاحِ دراجاتهم، لم يكن لَهُ أصدقاء ولا أسرةٌ تعيشُ معه، بَلْ كَانَ يعيشُ وحيدًا في شقّته المتواضعةِ فوقَ محلّه. تتشابه أيامُ سعد كما تتشابه زبائنه دونَ أيّ تجديد أو إثارةٍ، كَانَ النّاس يعبرون مِن أمام دكانه الصغير دون أن يلتفتوا إليه، أو يبادلونه التحية، لم يكن لَهُ حضورٌ في مجالسهم ولا يدعونه لمناسباتهم.

كانت حياتُه تمرُّ بهدوءٍ، دون ضجّة أو اهتمام. كَانَ يتوق إلى الاعترافِ والتقديرِ، إلى أن يكون لَهُ مكانةٌ بين النّاسِ. كانت تلك الرغبةُ تنمو داخله، تأكلُ قلبه كلّما رأى التجاهلَ في عيونِ المارة إلا قليلًا منهم، إلى أن تغير روتينه اليومي عندما اقتحم رجالُ الشرطة دكّانه وهو منهمكٌ في إصلاحِ دراجةٍ قديمةٍ، غارقٌ في تفاصيل عمله البسيط، عندما سمع صوتَ خطوات ثقيلةٍ، واقتراب غير معتادٍ، رفع رأسه ليجد أربعةً مِن رجالِ الشرطة يقفون بوجوه جادة وأعينٍ حازمةٍ عند بابِ دكّانه، وقبل أن يستوعبَ أو يسألَ، أمسكوا بِهِ وأخبروه أنّه متهمٌ في قضيةِ سرقةٍ، وقادوه إلى سيارةِ الشرطةِ وسط دهشة القلة الذين كانوا يمرون بالمكانِ، وشعورٌ غريبٌ في قلب سعد لا يستطيعُ تفسيرَه مِن الخوفِ والارتباكِ المختلطِ بالفرحةِ والفخرِ، كَانَ يحدّثُ نفسه داخل سيارة الشرطة، يحاولُ تهدئتها، وهو يقول: ربّما هذه فرصتي، ربّما هذا ما سيجعلُ النّاسَ يرونني، بالطبعِ فأنا مظلومٌ، لم أقترف جرمًا أو آذي أحدًا، وسوف يتحدّثُ النّاسُ بعد خروجي عن قصةِ الظلم والنضالِ بعد أن أروي لهم تفاصيلها، كما أن السجن لا يدخله إلا مَن كَانَ لَهُ خطرٌ، من يخافه النّاسُ ويهابوه، ويرونه تهديدًا فيغلقون عليه الزنزانة اتقاءَ لشرّه، وقد صرت الآن واحدًا منهم.

لم يملك سعدٌ من المالِ ما يكفي لتوكيلِ محامٍ، وحُبس احتياطيًا لخمسة عشر يومًا على ذمة التحقيقات والتي تمّ تجديدها لتصل ثلاثةَ أشهرٍ قبل إعلان براءته.

كانت ساعاتُ السجن وأيامه خفيفةَ الوقعِ بآثارها على قلبه، وكأنّه في نزهةٍ أو

رحلةٍ بعيدًا عن جدول حياته المعتاد وروتينها الممل، مما يثيرُ استغرابَ السجناء معه؛ حيث كانوا يتساءلون عن سرّ التفاؤل والهناء وسط قيودِ الزنزانة وضيقِ المكانِ، فيردُّ عليهم، نحن جميعًا في نادٍ للعضوية الحصرية فليس الجميع يُعتقلون وإنّما فقط أصحاب الإرادة الصلبة والشجاعةِ والشرفِ، وكانت الضحكاتُ تتعالى عندما يصرخُ سعد مناديًا أحدًا ليجلب لَهُ شاي وهو يقول لماذا لا يجيبني أحدٌ لا تشعروني أنّي في سجن! فيرد عليه من معه وهل أنت إلا في سجنٍ؟

ومنذ أنْ خرجَ من السجنِ وقد تبدلت نظرتُه للزمنِ، وبدأ بتأريخ جديدٍ لحياته، وقد أطلقَ على تلكَ السنةِ اسمَ سنةِ الاعتقالِ، والتي قسمت حياتَه إلى جزئين قبلُ وبعدُ، وصارت عبارتيّ قبلَ سنةِ اعتقالي وبعدَ سنة اعتقالي حاضرتين في كُلّ حديثٍ بغض النظر عن محتواه أو المخاطب بِهِ أو حتّى سياقه.

كان يتحدّثُ عن تجربته في السجن بفخرٍ، يروي كيف ظُلمَ، وكيف صمدَ، وكيف حوّل هذه التجربةَ إلى نزهةٍ ومغامرةٍ، وكيف كانَ يُخرج السجناء مِن الكآبةِ والملِ بروحِ الدعابة والضحكِ، فكان يطلقُ على الزنزانة اسم المنتجعِ، وعلى حرّاس السجنِ طاقمَ الضيافةِ، وكانَ يمسك بالخبزِ اليابسِ المقدّم مع الطعامِ، ويقولُ لا يحتاج إلا لبعض الشيكولاتة السائلة عليه ليصبح كيك الشيكولاتة.

وكيف كانَ حزنُ السجناء بالإفراج عن سعد الذي أصبحت شخصيته المرحةُ وروحه المعنوية العالية جزءًا مِن حياتهم اليومية داخل السجن.

بدأ النّاس يتجمعون حولَ دكّان سعد ليس فقط لإصلاحِ دراجاتهم، وإنّما لسماع حكاياته عن السجن، وذات يومٍ جاءته دعوةٌ غير متوقعةٍ مِن رئيس الحي لحضور وليمة زواج ابنه، شعر سعد بمزيجٍ مِن الدهشةِ والفرحِ، لقد كانت تلك الدعوةُ غير متوقعةٍ تمامًا، خاصة مِن رجلٍ ذي مكانةٍ كهذا، وشعر أنّ هذه الدعوة بدايةُ كتابة فصلٍ جديدٍ في حياته، وأنّها حلمُ الاعترافِ والتقديرِ الذي تحققَ، وما إن دخلَ سعد ورأى استقبالَ النّاسِ لَهُ، واحتفاءهم بِهِ وأسئلتهم عن تحقله للظلمِ، وصموده في وجه الصعابِ، والنظر إلى البلاء بعين الرضا، أدركَ عندها فقط أنّ التقديرَ والمكانةَ لا يأتيان مِن الظلمِ أو السجن كما كانَ يظنُّ، وإنّما بالصمودِ والشعورِ بالرضا والاستعدادِ

للتعلمِ والقدرةِ على تحويلِ التجاربِ الصعبة إلى قصصٍ ملهمةٍ.

حزن في المدينة المقدسة

وصلَ أحمدُ إلى مكةَ لأداءِ العمرةِ للمرةِ الرابعةَ عشرَ، لكن كَانَ كُلّ شيءٍ مختلفًا، وكأنّما هناك شيء ناقص، لم يكن الحرمُ المكي أقلَّ روعةٍ أو قدسية، بَلْ كَانَ قلب أحمد يحملُ ثقلًا مِن الحزنِ لغيابِ أخته وزوجها اللذين لم يغيبا عن رحلته على مدار ثلاثةَ عشرَ عامًا.

لم تكن الدموعُ في عيني أحمدَ عند رؤية الكعبةِ والصلاةِ عندها دموعَ الفرحِ للعودة والخشوعِ المعتادة، بَلْ كَانت مزيجًا مِن الحزنِ والأسى مع الخشوعِ والفرحةِ، لم يؤدِ مناسكَ العمرةِ وحده أبدًا، أين أختي التي لم يمنعها بُعد المسافةِ عن لقائي كُلّ عامٍ، وأين زوجُها الذي كَانَ يسألُ في كُلّ اتصالٍ عن موعد الأنسِ والطمأنينةِ والراحةِ النفسية؟ مازال صوته يتردد في أذني وهو يعتذرُ بنبرة مليئةٍ بالأسى لتركه للعملِ وصعوبة تدبير مبلغ كافٍ للسفرِ والإقامةِ، ما لي أرى وجوهَهم في كُلّ ركنٍ في الحرم؟ مال الأماكن تبدو فارغةً وصامتةً برغم الازدحامِ والصخبِ؟ حتّى دعائي أضحى كلماتٍ تفيضُ بمشاعرِ الفقدِ والحنين، أهذا حزنٌ على نفسي أم عليهما أم علينا جميعًا؟ كنّا نأكلُ في المطاعمِ الفخمةِ، ونشتري الهدايا الفاخرةَ، والآن لم يعد بإمكانهم حتّى تحمّل تكاليف العمرةِ وهم يعيشون بالمملكةِ؟!

كان أحمدُ يحدّث نفسَه وقلبُه يغص من الألم، فلم تكن الرحلةُ السنوية تلك مجرد مناسك دينية، بَلْ كَانت مغامراتٍ وأحاديثَ وضحكاتٍ وأحلامًا يرسمها أحمدُ مع زوج أخته وابن خالته نادر، وهمومًا وضغوطًا كَانَ هذا اللقاءُ متنفسها وشحنًا لبطارية النفسِ حتّى تعملَ بكاملِ طاقتها لعامٍ قادم يعاد الشحنُ بعده في نفسِ المكان وبذات التفاصيل.

ما إن انتهى أحمدُ مِن مناسكِ العمرةِ حتّى هجم عليه إحساسٌ حاوطه مِن كُلّ جانبٍ، يصرخ وينادي بالرحيلِ، وهو يحاولُ طرده ويحدّث نفسه أيُّ رحيلٍ ولا تزال أيامٌ سبعةٌ تنتظرني هنا في مكةَ؟ فيجثم الشعورُ على صدرِه حتّى يضيق وينتظرُ الخلاصَ بتقديمِ موعدِ الطائرةِ والذهاب مِن هذا المكانِ، فيدفعه وهو يستغفرُ ويقول: ما هذا الذي يجري لك! وما ذلك الإثم الذي احتملته بتلك الرغبة العارمة في

الرحيل؟!

أنتَ في مكانٍ يحلم كُلّ مسلم أن يأتي إليه، والصلاةُ فيه بمائةِ ألف صلاةٍ، ألم تكن تعدُّ الأيام متشوقًا متلهفًا إلى الزيارةِ؟! أين ذهبت السعادةُ والسكينةُ التي كانت تغمرني في هذا المكان كُلّ عامٍ؟ هل هذا ضعفٌ في إيماني؟ كانَ أحمدُ يغمضُ عينيه وهو في غرفته بالفندق محاولًا استرجاعَ اللحظاتِ الروحيةِ التي عاشها هنا سنواتٍ طويلةً، ويبحثُ عن قلبه الذي كانَ يرافقه كُلّ عام، فيجد الضيقَ يزدادُ، والألمَ يتضاعفُ، خصوصًا بعد اتصال أخته وزوجِها يسألونه أين تناولت طعامَك؟ هل ذهبتَ إلى مطعمِنا المفضّل؟ ولا تنس شراءَ الهدايا مِن محلاتِ كذا وكذا، وعندما يستجمعُ طاقته ويقوم قاصدًا الذهابَ للحرمِ حتّى يصلي فيسرّي عنه ما يشعرُ، يجد ساقيه تأبيان التحركَ، وكأنّما عليهما ثقلٌ عظيمٌ، وعندما يصرخُ جالدًا نفسَه، كيف أكون بهذا الضعفِ والخور في هذا المكانِ المباركِ؟ ثم ينتصر على ساقيه، ويحملُ نفسَه للحرمِ، يصلي ويبكي، ويسألُ ربّه ألا يكون هذا غضبًا أو سخطًا نزل عليه فيورده المهالك.

يصلي فإذا دموعُه تسبقُه إلى موضعِ السجودِ وهو مازال قائمًا، لم يكن يتخيل أنّ نادرًا ذا المهارات والكفاءة العالية يبحثُ لشهورٍ عن عملٍ دون جدوى، وكيف يتخلون عنه بعد تلك السنين بكلّ ما يحملُ مِن الكفاءة والتفاني والإخلاصِ، لم يتوقع أن تدير الدنيا ظهرها لأخته العطوفة الكريمة التي كانت تغمرهم بالهدايا الثمينة كُلّ عام، لم يتحمّل أن يضطروا إلى تحويل أبنائهم مِن المدارس العالمية إلى أخرى أقلّ في المستوى التعليمي والتكلفة، كانت عباراتُ نادر تتردد في أذنه، فيصدع لها قلبُه وهو يحذّره أن يمر عامٌ دون أن يأتي للعمرة، وهو يقول: اعلم أنّك إن قصّرت في المجيء فسوف تتحمل العواقب، فقد لا أتحمل ضغوط العمل، وإن انفجرتُ فلا يتركني أحدٌ أعمل يومًا واحدًا، فاجتماعنا كُلّ عامٍ بمكةَ هو البلسمُ الذي يداوي الجروحَ، والدفعةُ المعنويةُ التي تمنحُ القوةَ والصبرَ على التحدياتِ، فالمكسورُ إذا لم تجبره وتعالجه فسوف يتضاعفُ الكسر حتّى يفقد يديه.

ها أنا ذا يا نادرُ وفيتُ بوعدي ولم أتخلف، فأين أنت وأين أختي وأولادُها الذين

هم بضعة مني؟ كنتَ تواجه أيامَ الغربة بأحلامِ المشاريع التي سنقيمها فور عودتك إلى بلدك، وأنّ ثمنَ الغربة هو المالُ الذي توفّره لتمويل ما سنتفقُ على تنفيذه مِن أفكارٍ كنتَ لا تتخيلها أو تتصورها إلا معي يدًا بيدٍ، وها أنا اليوم لا أقدر على تقديمِ شيءٍ، فلا كلماتِ التشجيع تخففُ ثقل هذا الهمّ، ولا المواساةُ تعينُ على تجاوزِ تلك الأزمةِ.

كانت دموعه الحارةُ تسقطُ بغزارةٍ، وهو يدعو لأخته وزوجها الحبيب والقريب ولأبنائهم أن يرزقهم اللهُ الصبرَ والقوةَ لتجاوز تلك المحنةِ، وأن يفتح لهم أبوابَ الرزق التي يستحقونها، ولم تنجح تلك الدموعُ أن تمحوَ ما يعتملُ بالنفسِ مِن حزنٍ، فأخذ يدعو ربّه أنْ يغفر لَهُ هذا الشعورَ الذي بدأ يزدادُ في الرغبةِ لمغادرة مكةَ، أدركَ أن جزءًا كبيرًا من تجربته الروحانية كانت تكتمل بتواجدِ أخته وأسرتها، وأنّ إحساسه بالعجزِ تجاهها والألم لِمَا أصابها هو سببُ هذا الشعورِ وتلك الرغبةِ، وأنّ هذا الحزنَ الذي أصابه هو جزءٌ من إنسانيته، وعليه أن يتقبّله، ويعلم أنّ الله يغفرُ، ويعلم نوايا القلوب.

لم يتحمل أحمدُ أنْ يمرّ اليومُ الثاني في مكةَ حتّى سألَ عن أقربِ مكتبِ سياحةٍ، وانطلق إليه طالبًا تعديلَ تاريخ العودةِ؛ ليكون على أوّل رحلةٍ عائدةٍ إلى مصر، لم يعبأ بما خسره من مالٍ بسبب دفعه الإقامة كاملةً بالفندق أو تعديله لتاريخِ العودةِ، ولم يكترث لما سيقابله مِن انتقاداتٍ وتساؤلات بَلْ غادرَ لعلّه يتركُ وراءه مشاعرَهُ المتعبة، وذكرياتَه التي كانت تصرخُ في كلِّ مكانٍ.

ميراث الألم

كان قلبُ مراد يخفقُ بحنينٍ وإعجابٍ عند رؤيةِ أخيه يرتدي زيّ الشرطةِ، ويحملُ السلاحَ في جنبه، ويمشي بشموخٍ وسط نظراتِ الإجلالِ وكلماتِ التوقيرِ مِن الصغيرِ والكبيرِ، ويحدّثُ نفسَه وهو يتعجّلُ الأيامَ متى تنتهي الدراسةُ الثانويةُ؛ كي احتضن حلمي وألتقي محبوبي وألتحق بساحةِ الفخرِ وميدانِ العزةِ أكاديمية الشرطة؟ لم يرتبط المستقبلُ في خياله إلا بصورته ضابط شرطة، وقد نسج زملاءَ العملِ وعلاقاته وحتى شريكة حياته وفقًا لذلك.

غمرت الصدمةُ كُلّ ذرة في كيان مراد عند طلبِ أبيه التخلي عن هذا الحلمِ، وأنْ يلتحق بمعهدِ الحاسبِ الآلي المجاورِ لهمِ حتّى يرعى تجارةَ أبيه والتي هي في النهاية تجارتُه ومالُه، والذي لن يستطيعَ أحدٌ مهما بلغت أمانته أنْ يحافظ عليها ويثمّرها مثله، وأنّه سيشتري لَهُ سيارةً ويزوجّه إن شاء في أوّل سنواتِ الجامعةِ، ويكفي أنّ أخاه الأكبرَ ضابطُ شرطة، وأنّ أباه أعياه التنقلُ بين المحلاتِ والفروع الكثيرةِ في البلادِ المجاورةِ وأنّ ذلك قدرُه، فلم يرزقهم اللهُ سوى ولدين، فلو كَانَ عنده المزيدُ مِن الذكور لقدّم لَهُ كُلّ الدعمِ والتشجيعِ على تحقيقِ حلمه.

بدأت مشاعرُ الغضبِ والإحباطِ تملأ قلبَ مراد، والتي سرعان ما تحولت لمشاعر غربةٍ ونفور أدّت إلى عزلةٍ ابتعد فيها وانفصل عن أفرادِ عائلته والمجتمعِ من حولِه، فلم يعد يخالط النّاسَ إلا اضطرارًا وفي أضيقِ الحدودِ، كَانَ يسيرُ مسافةً قصيرةً ليصل للمعهدِ ويعودُ في نهاية يومه إلى غرفته يبقى وحيدًا، ويعيد الكرّة في باقي الأيام، ولم تفلح دموعُ أمّه ولا طلبات أبيه في إقناعه بمشاركتهم الطعامَ فقط بدلًا من تناوله وحده في غرفته.

لم يعد مرادٌ يشعرُ بأيّ انتماء إلى أيّ مجموعة أو مجتمع، وعلى الرغم من وفاءِ أبيه بوعده وشراءه سيارةً حديثةً وتجهيزِ شقةِ الزوجية بأرقى وأغلى وأحدثِ التجهيزاتِ كتعويض لَهُ عن المكانة الاجتماعية التي فقدها بالتخلي عن حلمِ الشرطةِ، ورسالة تعكس رصيدَ الحبّ والاهتمامِ المتساوي في قلبِ عبد الرازق لأبنائه، إلا أنّ شعور الظلمِ والتمييزِ، وإجهاضِ الحلمِ لم يبرد لحظةً، أو يخف لهيبُه

في قلبِ مراد الذي رفضَ كلّ عروضِ الزواجِ، ولم يفكر يومًا في استخدامِ سيارته أو حتّى اكتشاف مميزاتها، رغم تحذير أخيه مجدي أنّ تخزين السيارة فتراتٍ طويلة يؤثّر سلبًا على أجزاءها المختلفةِ، ويؤدّي لتدهور حالتها، دونما جدوى أو اهتمام من مراد، وكأنّما فقد الانتماء للأشياء أيضًا وليس للبشر فقط، وكأنّ سيارتَه التي تقفُ بانتظار أنْ يقتربَ منها جزءٌ من عالم آخر لا يخصّه.

أثارت حالةُ مراد تعجّب واستغراب الجميع فلم يكن سببُ التحاقه بالمعهد وعدوله عن الشرطة مقنعًا أن يغمره في هذه العزلة التي دخلت في عامها السادس، فقد مضى عليه عامان بعد إنهاء دراسته، وهو لا يكادُ يخرجُ من غرفته، وقد سأم الأبُ وضاق ذرعًا بردوده المقتضبة عندما يدخل عليه غرفته ويحرّك يديه على رأسه في حنان وهو يقولُ: ابني الحبيب ألم يأن لهذا الحصارِ أن يُكسرَ، ولقيودِ العزلةِ أن تتحطمَ، فيرد ببرودٍ إنّي مرتاحٌ هكذا يا أبي، وقد لبيتُ لك رغبتك بالبقاءِ بجوارك، وأتمنّى أن تقدّرِ رغبتي في البقاءِ وحدي، كانتْ والدته لا تملُّ مِن طلبِ العون من أقارب مراد الذين هم في نفسِ عمره أن يمرّوا عليه ويحاولوا اصطحابه للخارجِ، وأن يتسلقوا أسوارَ سجنه الداخلي ليطردوا شبحَ العزلةِ، ويغوصوا في أعماقِ صمته حتّى ينتزعوا الألمَ، ولما نجح بعضُهم في إخراجه مِن عالمه لحظاتٍ ليبوحَ بما يعتملُ في نفسِه أخبر أنّ كلّ العالمِ تواطأ على إجهاضِ حلمه الذي لم يكن سوى أن يرتدي بذلة الضابط، تلك البذلة التي رأى فيها رمزَ القوةِ والاحترامِ، ومِفتاح المكانةِ التي يسعى إليها، وأنّه لم ولن يرضى بالتجارةِ بديلًا، وأنّ تلك العزلة التي فرضَها على نفسِه وسيلةٌ للتعبير عن احتجاجه الصامتِ، وسجنٌ اختياري يعبّر من خلاله عن رفضه لكلّ ما حولَه، بعدما علمت أمُّه ما يحمله قلبُه مِن شعورٍ بالتمييز قررت أن تفتح لَهُ أبوابَ الأملِ، وتساعده على اكتشاف مسارات جديدة حتّى لو بعيدًا عنهم.

دخلت غرفته ذاتَ مساءٍ، وقالت: مرادي وابني الحبيب في محاولةٍ لإغرائه بعالمِ جديدٍ من الفرص والاحتمالات ما رأيك في عمل بطاقة استيرادية باسمك تستورد البضائع من دول المنشأ بدلًا من شرائنا من المستوردين، وتصبح رجلَ أعمال تجمع بين الربحِ والمكانةِ الاجتماعية؟

نظرت في عينيه ورأت التردد، فأردفت: إن لم تكن هذه رغبتك فما رأيك أن نتقدم للحصول على فيزا لأوروبا وتسافر تبحث عن ما يلائم نفسك، ويوافق هواك، ويمدّك أبوك بأموالٍ تكفيك عامًا كاملًا حتى تجد شغفك، ولم تكتفِ بذلك بَل أضافت، وإذا لم تحبّ السفر للغرب وفضّلت منطقتنا العربية، فيمكن لوالدك أن يستثمر علاقاته مع أصدقائه في الخليجِ لفتحِ تجارةٍ لك هناك، فتفتح مشروعك الخاص وتبني مجدك بعيدًا عن كُلّ ما يشعرك بالتقييد هنا، كانت كلماتها مليئةً بالإصرار والأمل، تحاولُ بكلّ الطرقِ أن تفتحَ أمامَه أبوابًا جديدةً؛ ليخرج مِن سجنِه ويستعيدَ ثقته في نفسه وفي المستقبل، كانت كلماتُها تقطرُ حبًّا واهتمامًا وحرصًا، وهي تحاول أن تقنعه بأنّ الحياة ما زالت تقدّم الفرصَ التي تستحق أنْ يغامرَ من أجلها.

لم يعد عبد الرازق يمرُّ على غرفةِ ولده ولا حتّى يحادثه، وإنّما يرسلُ لَهُ المالَ على فتراتٍ بواسطةِ أمّه، والتي كانت تذكّره بكلماتٍ يائسةٍ بحق أبيه عليه، وأنّ الإجهادَ بدأ يأخذُ مِن صحته، وأنّ المرضَ وقفَ على بابِه يريدُ أن يمسكَ بتلابيبه ولكنّه يقاوم، ولكن لم تفلح تلك الكلماتُ في فتحِ أقفال القلبِ التي أحكم الحزنُ والإحباطُ إغلاقها.

حتى أيقظته أمُّه صباح يومٍ بصوت يملئه القلقُ والخوفُ.

مراد: انهض بسرعةٍ، والدك مريضٌ جدًا، ويحتاج إلى الذهاب للمشفى حالًا.

قفز وانطلقَ إلى غرفةِ أبيه التي لم يدخلها مُنذُ أعوامٍ، وإذا بأبيه شاحب الوجه، وعيناه مغلقتان مِن شدة الألمِ، فأراد مراد أن يساعده للنهوضِ فلم يقوَ الأبُ على الحركة، استدعى مراد سيارةَ إسعافٍ، وتواصل مع مجدي والذي لم يكن في البلدة ليخبره بحال أبيه.

لم تغب شمسُ هذا اليوم إلا وقد خفتت أنفاسُ الأبِ، وغابت روحُه عن الدنيا، وكأنّه اختارَ الرحيلَ في هدوءٍ دونَ أنْ يُثقل على ابنه المتمردِ، ويحمّله جميلَ البرّ والإحسان إليه في مرضه، فيعيش حياته مقتنعًا أنّه أدّى حقَّ والده قبل موته.

غمر شعورُ الفقدِ الممزوج بالندمِ قلبَ مراد، وجثى الألمُ على صدره حتّى ضاقت

أنفاسه، لم يكن يتوقع أنْ يرحلَ والده بهذه السرعةِ، غاب عن الدنيا مَن كَانَ يلومه ويحمّله مسئوليةَ تدميرِ حياته، ويعلّق إخفاقاته على تمييزه في المعاملة عن أخيه، لم يعد هناك مَن يُلام، ولم يعد هناك مهربٌ مِن الحقائق المؤلمةِ، ولم يبقَ لديه عذرٌ يبرر بِهِ قعوده وعجزه، شعر مراد وكَأنَّ الغطاءَ انكشف عنه فجأةً في ليلةٍ شديدةِ البرودةِ وهو في العراءِ والبردُ القارسُ يتسللُ إلى أعماقه يتجمد بِهِ أطرافه وتشل حركته، أيقن في هذه اللحظةِ فقط أنَّ أباه كَانَ الدفءَ والغطاءَ والسندَ.

كانت دموعُ أمّه ونواحها على زوجها ممزوجةً بالتقريعِ والتأنيبِ لمراد الذي لم يؤدِ حقَّ أبيه ولا أمّه، ولم يحمد اللهَ على ما رزقه من مالٍ، ولم يرضَ باختيار أبيه الذي لم يكن إلا عن حبٍّ وحرصٍ عليه وعلى تجارته، كَانت تصرخ فيه وهي تبكي وتقول: لم يكن يريدُ أن يجبرك على شيء لا تحبّه، وقد رأى فيك القدرة والكفاءة ليكون لك شأنٌ كبيرٌ في عالمِ الأعمالِ، أراد أن يضمن لكَ مستقبلًا آمنًا، وأن تكون قريبًا منه لتتعلمَ وتستفيدَ مِن خبراته، وكَانَ هذا طريقه للتعبير عن حبّه لكَ وحرصه عليك، أنت تعلمُ كم عانى أبوك لبناءِ هذه التجارة، وكم بذلَ مِن جهد وتضحيات، كَانَ يريد أن يطمئن أنَّ ما بناه لن يضيعَ، وأنّكَ ستكون قادرًا على استكمالِ مسيرته.

Telegram:@mbooks90

ليس لأنّه لا يثقُ بك، أو لا يريد لكَ أن تحققَ أحلامك، بَلْ لأنّه يراكَ الوريثَ الأمثلَ لما بناه بعرق جبينه، لم يكن يقصد أنْ يظلمك أو يحطّمك أو يفرض عليك قيودًا، بَلْ كَانَ يريدُ أن يفتح أمامَك آفاقًا جديدةً لم تكن تراها، أتمنى أن يكون ارتاح قلبُك الآن برحيلِ الجاني الذي أظلم حياتكَ، وسجنك داخلَ نفسك، ولكن اعلم أنّه ترك الدنيا وهو غير راضٍ عنك، مات وقلبُه ممتلئ بالغضب منك والحزن عليكَ، غابَ بعد أن خيّبتَ آماله، وعاش آخر أيامه بالحسرةِ والألمِ، واعلم قبلَ أن أموت أنَّ قلبي لم يعد يحمل نفسَ الحُبّ لك، ولن أسامحكَ على سنواتٍ سقيتنا فيها المرَّ، ونحن نسعى لإرضائك وتسكين خاطرك، أنت لا تستحق أن تكون الوريث لهذه التجارة، بَلْ أرى أنّك لا تستحق أن تحملَ اسم أبيك الذي لم تستطع أن تحمل مِن صفاته شيئًا.

صدّعت تلك الكلمات قلبَ مراد، وزادته حزنًا إلى حزنٍ وهمًا إلى همٍّ، وأيقن أنّه لم يفقد أباه وحده، وإنّما فقد معه الثقة والمكانة والحبّ في قلوبِ الجميع.

لم يكن مِن السهل على مراد التخلص مِن دورِ الضحية الذي مارسه لسنواتٍ، وأدّاه بإتقان حتّى صبغ شخصيته وأثّر في قدرته على التصرفِ ومواجهةِ الأحداثِ، فكانت رحلةُ الخروج والتحولِ بحاجةٍ إلى عزمٍ وثقةٍ وتحدّي.

بدأ مرادُ في تسلقِ أسوارِ العزلةِ والتواصل مع العالمِ الخارجي والتعرفِ على عملِ وتجارة أبيه محاولًا كسب ثقةِ أمّه مع حبّها والتصالح مع ذاته؛ ليثبت لنفسه ولعائلته أنّه قادرٌ على تجاوزِ الألمِ والندم.

لكن الأيام لم تسمح لَهُ بذلك فقبل مرور الشهر الثالث على موت أبيه حدثته أمُه أنّها رأت في المنام أنّها تتزوجُ وأخبرته بأنّ تأويل ذلك هو الموتُ، وأنّها تظن أنّها لاحقةٌ بأبيه عمّا قريبٍ، ازداد قلقُه بشكلٍ بالغٍ بعد سماعه هذا، فهو يعلمُ مدى إيمان وحكمة أمّه، وأنّها موصولة بالسماءِ ولكم رأت مِن قبل الرؤى الكثيرةَ والتي تحققت كفلقِ الصبح، لم يمضِ على الرؤية أسبوعٌ حتّى مرضت الوالدةُ، فاستدعى مرادُ الأطباءَ، وجهّز لها غرفةَ عنايةٍ متكاملةٍ في المنزل؛ لتوفير كُلّ ما تحتاجه من رعايةٍ، كَانَ يبيت بجوارها ممسكًا بيدها لا يتركُها، مرتعبًا أن يتضاعف ألمه بفقدانها، لكن المرض اشتد عليها بشكلٍ مفاجئ، ولم يمهلها سوى أربعةِ أيامٍ ليأخذَ منها بهاءها وجمالَها وقوّتها حتّى انتزع روحَها، والأجهزةُ حولَها تخبر أنّها فارقت الحياةَ، ومرادُ يمسكُ يدها وهو ينظر إليها وينادي عليها ودموعُه تنهمرُ.

أمي! لا، لا، أسألك بالله أنْ تجيبي عليّ، لا تمزحي معي لتختبري مدى حُبّك وخوفي عليكِ، هيا يا أمي أين ابتسامتكِ التي تهزم كُلّ تحدٍي؟ لا يمكن لهذا المرضِ أن يهزمكِ، ولن أسمح لَهُ أن يأخذكِ مني، هيا انهضي، أم أنّك تريدين النوم قليلًا، لا بأسَ ارتاحي ولكن لا تطيلي الرقادَ، فقد عزمتُ على الزواج، وعندما تستيقظين نذهبُ لخطبة مَن شئتِ مِن البناتِ، أعدكِ بذلك. أما كنتِ تريدين أن تحملي أبنائي كما حملتِ أبناء مجدي؟ أمي، لا تتركيني، لا تذهبي، سأفعلُ واللهِ كُلّ ما تريدين، فقط استيقظي، أنا بحاجةٍ إليكِ، إلى حبّكِ، إلى نصائحكِ، إلى وجودكِ في حياتي، صدقيني يا أمي لن أستطيعَ أن أعيشَ بهذا الألم، لن أتحملَ الحياة بدونكِ، قومي أرجوكِ واضربيني واشتميني وافعلي بي ما تشائين ولكن لا تتركيني، هذا وجهي

ارفعي يديكِ واصفعيني فأنا أستحق، لا يمكن أن تكون تلك النهايةَ، أين كرمك وتسامحكِ؟ كيف لا تمنحين ابنكِ النادم الفرصةَ ليصلحَ ما أفسد، أم أنَّك عقدتي اتفاق مع أبي أن تعاقبوني بقيةَ عمري، لا أصدقُ ذلك فأنتِ الحنانُ والدفءُ، وأنا مازلت أشعر ببردٍ يجمّد أطرافي مُنذُ رحيلِ أبي، وأنتِ لا ترضين لي مزيد من الألم.

أمسكَ مجدي بيد مراد بعدما أخذ يهزّ جسدَ أمّه بقوةٍ وهو يصرخ، احتضنه ليبكي على كتفه وهو يمسحُ على رأسه برفقٍ ويقول أنا أتفهم ألمك، فرصةُ البرّ لم تنتهِ، واللهُ يعلمُ صدقكَ وندمك، ولكن لا بدّ أن نتماسك، فمازال أمامنا الكثير من تجهيز الجنازة والدفن واستقبال المعزّين، فلا بدَّ أن نقدم لها وداعًا يليق بها، فيرد مراد بصوتٍ مرتعشٍ مليء بالدموعِ والحزنِ، كنتُ أدخلُ البيتَ أتجاهلها ولم أدخل غرفتها سنواتٍ، ولم تكن ردودي عليها تحمل أيَّ وُدٍّ، وبعد أن أصبحتْ الهواءَ الذي أتنفسه والسبب الذي يستحقُ أن أعيش مِن أجله، ترحل هكذا وتتركني، كيف أعيش بدونها؟ كيف أدخل بيتًا ليست فيه؟ وكيف ومتى أُكفّر عن الآلام التي سببتُها لها ولأبي قبلها؟ ومَن الجاني ومَن الضحية؟ ومَن يقاسمني ميراث الألم الذي لا تقوى على حمله كلّ المخلوقاتِ؟

Telegram:@mbooks90